الفصل السادس
تحول الخزر إلى اليهودية
حسب المصادر العبرية

لا تقدم المصادر العربية إشارة إلى تاريخ التحول أكثر دقة مما ذكره المسعودي في روايته التي سلف نقلها، والتي جاء فيها: إن ذلك قد حدث أيام خلافه هارون الرشيد، أي في حوالي عام 800م، وجاء في كتاب يهودا هاليفي ـ الذي يحمل عنوان «الخزر» (الخزاري) وكان قد كتب بالأصل بالعربية في سنة 1140، ثم ترجم فيما بعد إلى العبرية من قبل ابن طبون بعنوان كوسرى (كوزاري) ـ أن ذلك كان سنة 740م، وكتاب هاليفي كما هو معلوم كتاب دفاع عن اليهودية الحاخامية، جرى عرض مواده على شكل مناظرة قيل: إنها تمت في بلاد الخزر قبل أربعمائة سنة من أيام المؤلف، وكان الذين شاركوا في تلك المناظرة هم الملك الخزري وآخرون، ولم يهتم هاليفي في توسيع إطار الحدث، فلقد تركز اهتمامه على الأمور اللاهوتية وليس على التاريخية، ولكنه عدّ تحول الملك إلى اليهودية في هذا التاريخ بمثابة حقيقة مقبولة، ولقد حظي كتابة كوسري» (كوزاري) بعناية فائقة في كل مكان وليس في أوساط اليهود فقط، فقد حقق ونشر في القرن السابع عشر من قبل بوكستورف Buxtorf الأصغر) وهيردر الرومانسي الألماني، وقورن بترجيح بكتب المناظرات الأفلاطونية، وظل في العصور الحديثة موضوعاً للدراسة.

وجاء تسلسل ما قاله هاليفي حول بلاد الخزر، والخزر كما يلي: «لطالما تساءلت ما الحجة، وما الجواب الذي يمكنني أن أقدمه للفلاسفة الذين يختلفون عنا؟ وإلى رجال

الديانات الأخرى (فيما عدا المسيحيين)، وأيضاً إلى الهراطقة فيما بيننا الذين انحرفوا عن الديانة اليهودية حسبما هي مقبولة بشكل عام؟، وخطر ببالي عندها وتذكرت ما سمعته عن مناقشة وحجج أحد العلماء، وكان مع ملك الخزر، وأعني به الملك الذي تبنى اليهودية منذ أربعمائة سنة مضت، ولقد ذكر حسبما جاء في كتب التاريخ أن هذا الملك قد رأى فيما يراه النائم عدة مرات ملكاً تحدث إليه وأخبره أن نواياه مقبولة من قبل الخالق، لكن أعماله مرفوضة، ومع ذلك كان شديد التعلق بديانة الخزر يشارك في الأعمال التعبدية داخل المعبد، ويقدم الأضاحي بقلب مخلص، وفي الوقت الذي كان فيه منشغلاً بهذه الأعمال ظهر له ملاك في الليل قائلاً: نواياك مقبولة، لكن أعمالك مرفوضة، وقد دفعه هذا إلى البحث عن الإيمان الصحيح والديانة الحقة، وهكذا أصبح يهودياً ومعه كثير من الخزر، وكان بين حجج ومناقشات العالم اليهودي بعض ما ارتاح له قلبه وارتضاه فهمه، ولقد رأيت أنه من المفيد عرض هذه الأشياء كما وقعت لي، والعاقل سيفهم:

لقد روي أنه عندما رأى ملك الخزر في منامه أن نواياه مقبولة لدى الخالق وأعماله مرفوضة، وعندما أمر في منامه أن ينشد الأعمال المقبولة، سأل أحد فلاسفة أيامه عن إيمانه».

قال هاليفي: وتلا ذلك حوار قصير مع الفيلسوف، قال بعده الملك لنفسه: لسوف أسأل مسيحياً ومسلماً... وهكذا بعث خلف رجل حكيم مسيحي.

وتلا ذلك حوار مع المسيحي، وأرسل إثر هذا ـ كما أخبرنا ـ خلف رجل حكيم مسلم، هذا وسلف أن عرضنا حديثهما من قبل، وأخيراً استدعى يهودياً متعلماً، وبعد بعض النقاش مع اليهودي انتهى القسم الأول من الكتاب، ويتوجب أن نلاحظ هنا أن المتكلمين جرى تقديمهم واحداً إثر الآخر، وأنه لم يكن هنالك مناظرة عامة شاركوا فيها جميعاً.

ويبدأ القسم الثاني من كتاب «كوزاري» بالمشهد التالي: «وباح بعد هذا ملك الخزر ـ كما جاء في كتب الخزر ـ بسر منامه إلى قائد جيشه، وتردد عليه المنام الآن طالباً منه البحث عن العمل الذي يرضي الرب في جبال ورصان (أي فرشان أو ورثان) وبناء عليه انطلق الملك والقائد معاً بحراً نحو الجبال التي هي في الصحراء، ووصلا ليلاً إلى كهف، حيث كان بعض اليهود قد استراحوا سبتهم كله، وبعدما رأوهما أدخلوهما في دينهم وختنوهما في الكهف،

وعادوا بعد ذلك إلى بلديهما، ومع أن قلبيهما قد مالا نحو ديانة اليهود، فقد أخفيا إيمانهما حتى تمكنا من إيجاد الوسائل لإفشاء سريهما قليلاً قليلاً إلى بعض المقربين منهما، وأصبحوا أخيراً كثيرين، وتعاهدوا على ما أخفوه من قبل، وهكذا سيطروا على بقية الخزر، وألزموهم في أن يصبحوا يهوداً، وأرسلوا يجلبون من كل أرض العلماء، والكتب، ودرسوا الشريعة، ولقد عرض أيضاً (في كتب الخزر كما يبدو) كيف أنهم منعمون وانتصروا على جميع أعدائهم، وأخضعوا بلدانهم وأخفوا الكنوز التي كشفت لهم، وازدادوا كما قيل إلى مئات الألوف، وأحبوا الشريعة، ورغبوا في إقامة هيكل مؤقت على شكل هيكل موسى، واعتنوا بالإسرائيليين المحليين، وباركوا أسماءهم، ولقد روي هذا كله في كتبهم، وعندما تعلم الملك الشريعة، وأخبار الأنبياء، اتخذ العالم أستاذاً له، وصار يوجه إليه الأسئلة حول اليهود، وكان السؤال الأول حول اسم الرب وحول ما يعزى إليه»، وابتداء من هذه النقطة يتابع الكتاب فيعرض الأسئلة التي طرحها الملك والأجوبة التي أجابه بها.

إن الانطباع الأول الذي يتكون لدينا لدى قراءة هذه النصوص المقتبسة، هو أنها مخترعة، إن الطبيعة الفجة المغالية لا يمكنها بحد ذاتها ترجيح صحة وثيقة تعود إلى هذه الحقبة، ثم إن ما قيل حول الخزر يلقي بعض الشكوك على الأسس التاريخية للرواية، فهي قد مثلتهم يمتلكون مكاناً للعبادة أقيمت فيه الطقوس، وقدمت الأضاحي، وذلك قبل اعتناق اليهودية، ولا يمكن لهذا التوافق بسهولة مع ما نعرفه عن الأتراك الوثنيين، زد على هذا: إن وجود فيلسوف مع ملك الخزر في الوقت الذي نتوقع فيه وجود راهب شاماني، صعب القول، ثم أن يقبل ملك الخزر وقائد جيشه الخضوع إلى طقس الختان على أيدي غرباء مجهولين، مسألة لا يمكن تصديقها.

هذا من جهة، وتتكلم بعض التفاصيل من جهة أخرى لصالح الرواية بشكل إيجابي، حيث أن وجود قائد الجيش إلى جانب الملك أمراً مدهشاً على ضوء وجود الخاقان والبك في بلاد الخزر، وقد وقعت الوقائع في «جبال ورصان[1]» التي قيل إنها موجودة «في

(1) يبدو أن نهر «ورشان» قد ورد ذكره في رد يوسف أنه واقع على مسافة عشرين فرسخاً من عاصمة الخزر. زكي وليدي (ابن فضلان: 157) حيث يجعله في دلتا نهر الفولغا. وإن اقتراح مرقوارت (20) أن العبارة الأصلية في الرد هي «جبل ورسان» لا يمكن قبوله على أساس ما ورد في النص الطويل.

صحراء قرب البحر»، وينبغي أن تكون ورصان هي فارشان في النهاية الشرقية للقوقاز[1]، وقد جرت مطابقتها مع ورثان الشمالية[2]، المجاورة لبلاد الخزر، والتي لم تكن داخل الأراضي الخزرية، كما حدد ذلك هاليفي، وكما ينبغي أخذ الكهف الذي ذكره بعين التقدير أيضاً، حيث تظهر الإشارة إليه في مكان آخر، بيد أن تحديد تأريخ الحادث بشكل خاص، الذي قال هاليفي إنه وقع منذ أربعمائة سنة، أو كما عرض خلال الحوار ـ سنة 4500 بعد موسى، أي سنة 740م، يبدو أنه يتحدث إيجابياً لمصلحة الرواية، هذا وعلى الرغم من أنه يمكننا في الوقت الحالي التأكد من أين استقى هاليفي معلوماته، إن الافتراض بكل بساطة أنه اخترعها، خطير جداً.

والأرجح أنه ملك بعض المصادر، وتصرف بها بشكل أدبي، فهو يشير إلى كتب تاريخ، وكتب الخزر، مع أنه لا يبين صراحة فيما إذا كان قد استخدمها، ولعله كان يكتب اعتماداً على رواية شفوية، ذلك أنه قال: «وخطر ببالي عندها وتذكرت ما سمعته عن مناقشة وحجج أحد العلماء. . . إلخ» ولسوف يكون لدينا ما نقوله فيما بعد حول مصادره الشفوية المحتملة، ويمكن أن نلاحظ في الوقت نفسه أن إصراره على «كتب الخزر» يوحي أن اعتقاداً من هذا القبيل قد وجد، فنحن نملك تصريحاً لدى مصنف الفهرس (حوالي 987) يفيد أن الخزر استخدموا الخط العبري في كتابتهم[3]، وفي حالة الغياب الكامل لوجود أية وثيقة خزرية في أي مصدر آخر، يمكننا أن نفترض أنه لو أن شيئاً من هذا القبيل قد وجد كما يشير هاليفي، لابد وأنه كان بالحروف العبرية، هذا من جهة، وجاء من جهة أخرى في كتاب «تاريخ فخر الدين مبارك شاه» الذي كتب في عام 1206: «يوجد لدى الخزر خط قريب من خط الروس، فقد كتب بهذا الخط جماعة من الروم المجاورين لهم، يعرفون باسم روم الروس، وهم يكتبون من اليسار إلى اليمين، وأحرفهم ليست متصلة ببعضها بعضاً[4]، وعددها واحد وعشرون»، وذكر أبرهام بن داود، وهو معاصر لهاليفي أن

---

(1) من أجل فرشان، انظر الفصل الثالث.

(2) انظر الفصل الرابع، الحاشية: 90.

(3) تحقيق فلوجل: 20.

(4) تحقيق إ. دينصن ـ روسي ـ لندن 1927: 46 (اقتباس ر. ن. فراي: ملاحظات على المصادر الإسلامية حول الصقالبة والروس ـ العالم الإسلامي ـ كانون ثاني 1950: 23).

أشخاصاً من أصل خزري كانوا في طليطلة في أيامه[1]، وبناء عليه لا يستبعد وجود أصحاب خبرة، مع «كتب الخزر» ومعلومات عن تحول الخزر إلى اليهودية في الأندلس[2].

وفي ضوء وجود ما يعرف باسم «مراسلان الخزر» في أيام هاليفي، فمما لاشك فيه أنها كانت متوفرة في أيدي رجال الدين اليهود في الأندلس قبل أربعين أو خمسين سنة من نشر كتاب «كوزاري»[3]، والافتراض أن هاليفي قد عرفها ليس أمراً غير طبيعي، وكون الحال كان هكذا، ثم إلى أي مدى أمكنه الاستعانة بها، هذه مسائل سنتعرض لها عندما سنقوم بمعالجة هذه المراسلات التي من المفترض أنها رسائل تبودلت بين حسداي بن شبروت - وهو شخصية يهودية معروفة في الأندلس - وبين يوسف ملك الخزر، وذلك في تاريخ ليس بعد 961م، وقد جاءت هذه المراسلات جميعاً بالعبرية، ويكفي أن نقول هنا إن عبارة[4] «كتب الخزر» لا تطلق بشكل مؤكد على المراسلات، سيما وأن التفاصيل الهامة المعطاة من قبل هاليفي ليست في الرسائل، مثال على ذلك الزيارة في ورصان، وتاريخ عام 740م.

ويمكن التساؤل فيما إذا كانت «التوراريخ» التي ذكرها هاليفي هي نفسها «كتب الخزر»، علماً بأنه يمكننا أن نفترض بشكل طبيعي أن هاليفي كان على معرفة بما حوته رواية المسعودي المفقودة حول تهود الخزر، وذلك مهما كانت التفاصيل المناقضة لما ذكره في مروج الذهب من أن الخزر قد تهودوا في خلافة هرون الرشيد، وما لم يكن التاريخ الذي قدمه هاليفي مخترعاً من قبله، وهذا أمر مستبعد لابد أنه استقى معلوماته - كما يبدو - ليس من مصادر عربية، مثل المسعودي، ولكن من مصادر يهودية، لعلها كانت خزرية[5].

---

(1) انظر الترجمة المعروضة فيما يلي: ليس من الواضح أن اليهود الخزر الذين رآهم أبرهام بن داود في الأندلس كانوا من أبناء ملوك الخزر كما قيل مراراً.

(2) يحتوي كتاب «ما اسيه هاشم» لسيمون أكابير بن يوسف وهو مطبوع باليدشية (مكتبة البودليان Opp 8 : 1103 (1) ورقة: 29 ظ - 30 ظ) على حكاية غريبة هي قطعاً غير تاريخية، جاء فيها أن أبرهام بن عزرا الواسع الشهرة قد تزوج ابنة الحاخام جودا (كما يبدو يهودا، ها - ليفي) في بلاد الخزر.

(3) يهودا بن برزيلي البرشلوني، انظر ما يلي.

(4) انظر الفصل الخامس.

(5) لعل المعلومات المسيحية عن تهود الخزرهي أبكر من المصادر اليهودية (انظر الحاشية: 44) بقرن، وصاحب المعلومات هو دورثمار الأكويتاني (قرن تاسع، وكان راهباً بند كتياً في كورفي في وستفاليا، =

لقد عثر على وجهة نظر مزعجة دونت على كتاب هاليفي حول الخزر، أدت إلى نتائج سيئة، فقد حملت صفحة العنوان من طبعة بوكستورف Buxtorf من كتاب كوسري (كوزاري) اسم الحاخام اسحق سنجري بمثابة مرشد رئيس لملك الخزر، ويظهر أن بوكستورف قد حصل على هذا من قراءاته، ذلك أن اسم اسحق سنجري ربما لم يكن معروفاً قبل القرن الثالث عشر عندما ذكره ناهماندير Nahmanides، وذكر شم توب[1] ابن شم توب (1430) أن الحاخام اسحق سنجري قد كان «عالماً ارتبط بملك الخزر، الذي أصبح يهودياً بفضله، وذلك منذ سنوات كثيرة مضت، في بلاد الترك ـ تغارمه، وقد ورد ذكر ذلك في بعض الكتابات، وكانت ردات الفعل الممتازة للحاخام يهودا هاليفي، الذي كان شاعراً أندلسياً، أراد إظهار معارفه العظيمة في الشريعة، والقبالة، وبقية الفنون الموجودة بأشكال موزعة بالعربية، هو أنه جمعها ونظمها بالعربية كما كانت، وقد ترجمت فيما بعد إلى العبرية[2]، وجاء بعد ابن شم توب الحاخام جديلة (حوالي 1587) فقال إن ردود اسحق سنجري كانت باللغة الخزرية[3]، ومن الواضح أن ما عناه شم توب هو أن ردود العالم التالية على ملك الخزر كما وردت لدى هاليفي في كتاب كوسري (كوزاري)، كتبت استناداً إلى ردود اسحق سنجري، الذي سلف له العمل في بلاد الخزر، ولكن بالتغاضي عن جميع مصاعب كيف يمكن الافتراض أن هذه الردود وجدت بالعربية بين يدي هاليفي، أو باللغة الخزرية، كما ذكر جديلة بكل وضوح، فمن غير الممكن الاعتقاد أن «مناقشات وحجج» العالم التي تكون الجزء الأعظم من كتاب كوزاري، وهو كتاب كبير، قد وصلت إليه من اسحق سنجري أو أي واحد آخر، ومن الواضح أنها نظمت

= وقد كتب ـ ربما قبل 864 ـ) حاشية على إنجيل متى لرهبان دير آردنز (مرقوارت: 23 ـ 24) أشار فيها إلى تهود الخزر، وافترض مرقوارت أن الحاشية كتبت سنة 800، لكن هذا غير مؤكد ومن الصعب استخدام هذا التاريخ للقول إن الخزر تحولوا في القرن الثامن.

(1) في مناقشة أمام ملك قشتالة في حوالي 1263 (تحقيق جيلنك بعنوان «توراة أدوناي تميمه ـ فينا 1872). انظر أيضاً ستارك: لايبزغ 1876: 24، الحاشية.

Firkovitch und Entdeckungen.

(2) سفرها ـ ايمونوث ـ اقتباس بوكستروف. ستارك. المصدر نفسه: 23، الحاشية.

(3) المصدر نفسه.

وعرضت من قبل هاليفي، استناداً إلى معلوماته الحاخامية اليهودية، وذلك على أساس أشياء كان قد سمعها، كما صرح هو بنفسه، ولا يوجد هنا احتمال النقل الشفوي المباشر لعدد كبير من الردود الفعلية، ثم إنه لا يوجد أي شيء في كتاب «كوزاري» يوحي أن المؤلف كانت أمامه مجموعة من الردود المكتوبة، ومن الصعوبة بمكان عدّ «التوراريخ» و«كتب الخزر» ردود أي حاخام كان، ولابد أن فيها إشارة إلى رواة، أو شيء من هذا القبيل، مخترع أم حقيقي.

وجرت محاججة وجهة نظر ابن شم توب من قبل فيركوفتش Firkovitch (قرن تاسع عشر)، وذلك بإصرار شديد، مضفياً عليها سمات خاصة من لدنه، فقد عبر في رسالة كتبها في بداية حياته العلمية المدهشة، عن وجهة نظر مفادها أن ردود الحاخام اسحق سنجري وصلت إلى يدي يهودا هاليفي، فلاحظ أنها تخالف التعاليم الحاخامية فترجمها ـ لهذا ـ إلى العربية بشكل مغاير[1]، وكان فيركوفتش قانعاً بأن اسحق سنجري كان من «القرائين Karaite»، وعلى أساس النظرية القائلة بأن القرائين قد غادروا فلسطين قبل أيام المسيح، وكانوا في القرم قبل وصول الخزر[2]، وطبعاً لم يكن مرجعه بالنسبة لهذا الأمر نصاً مجرداً، بل أستاذه من القرائين الذي ذكر اسمه، وختم القصة بإضافة عبارة: «وأنا متفق معه»[3].

وتجاوز فيركوفتش هذه التأكيدات ومضى أبعد منها، بإخراج ما أعلن عنه أنه عثر على شاهد ضريح اسحق سنجري، وادعى أنه وجده في القرم، وقد كتب عليه بالعبرية «اسحق سنجري ب ـ ج»[4] ومعنى الحرفين الأخيرين «بك بلاد الخزر»، وبالطبع قد رفض

---

(1) انظر نصاً ألمانياً من ستارك، المصدر نفسه: 16 . . . وهاركفي أيضاً Denkmaler: 270.

(2) انظر ستارك، المصدر نفسه: 25 ـ 26. يتضمن رأي فيركوفتش أن الكريات كانوا يحظون بمكانة خاصة لدى الخزر، ولعله قال هذا وفي ذهنه نص فيه عن كوسري (كوزاري) (3/ 22) لكن يبدو أنه بعيد عن الواقع الحديث عن الكريات ووجودهم في تاريخ مبكر مثل سنة 740، إنني لا أعرف شاهداً يوضح أن الكريات كانوا ذوي مكانة لدى الخزر حتى في حقبة متأخرة.

(3) ستارك المصدر نفسه: 23.

(4) انظر هاركفي Dekmaler: 174.

هذا على أساس أنه ليس صحيحاً[1]، وجرى إنتاج نقش آخر فيه بكل بساطة عبارة «سبجريث» وذلك بخط عبري سيء، وقد ادعى أنه شاهد ضريح زوجة سنجري.

وبصرف النظر عن هذين الشاهدين المخترعين، هناك الآن عدداً من المخطوطات العبرية في مكتبة بطرس بورغ العامة، إنما كانت من قبل ملكاً لفيركوفتش، وهي تحوي إهداءات وأشياء مشابهة، وقد تدخل بالنص، وقد جاء في إحداها ذكر داود بن اسحق سنجري[2]، وقال الجميع إن الاهتمام الذي أبداه فيركوفتش باسحق سنجري لم يساعد على إلقاء الضوء لتبيان من كان، بل على العكس بإقدامه على التوفيق بين الأفكار، عزم على جعل وجوده موضع شك أكبر[3]، ويمكن بالحقيقة القول بأن قصة تحول الخزر إلى اليهودية بأكملها كانت بالماضي عرضة للشك في بعض الأوساط، ومرد ذلك إلى جهود فيركوفتش غير الدقيقة أو بالحري المحمومة لإظهار أنهم ارتبطوا بقرائيه، ولسوء الحظ أن فيركوفتش قد تصرف على هذه الصورة، وقد تفحص كل من هاركفي Harkavy، وستراك Strack[4]، ثم من قبل شولسون Chwolson[5] مادته بكل دقة، هذا وإن استعراضاً كافياً لهذه المادة مع الأدبيات الوثيقة الصلة[6]، سوف يقتضي بحثاً خاصاً، وفي الوقت الذي قام فيه كل من هاركفي وستراك بلفت الانتباه بكل حق إلى مختلف أعمال التزييف التي قام بها فيركوفتش، فإنهما لم يستخدما عبارة تزييف في موضوعهما، هذا ويمكن لفحص دقيق للوثائق في ضوء النقد الحديث أن يقدم معلومات إضافية حول الخزر.

وفيما يتعلق باسحق سنجري يمكن القول إنه نشط في تهويد الخزر، حسبما جاء بالمصادر اليهودية، وذلك مع الأخذ بعين التقدير أنه لم يرد ذكره حتى وقت متأخر، وإذا

---

(1) يتحدث ن. سلوستشز في مجلة هـ. ديرنبورغ عن نقود عبرية عثر عليها في بولندا مع حكاية «أبراهام بك» (نقلاً عن هاركفي افري ـ كازاكي 1880). وقد بحث ليلي ول في مقال له (مجلة النميات 1860: 328 . . .)، وناقش سلسلة النقود التي أشار إليها هاركفي وسلوستشز.

(2) المجلة الآسيوية: 6/ 5 (1865) 538.

(3) كانت الغاية من مقال فيركوفتش إظهار أن الكريات كانوا متميزين عن اليهود المحافظين، وينبغي عدم معاملتهم بشكل سيء من قبل المسيحيين، لاسيما من قبل حكومة القيصر.

(4) فهرس مكتبة لينيغراد العامة.

(5) مجموعة النقوش العبرية (في الطبعات الروسية والألمانية).

(6) انظر المقال القصير لنيبورومونك في المجلة الآسيوية 1865.

صحت أصالة هذا الاسم فيمكن توضيحه عن طريق عزوه إلى بلدة سنجروس، أو سنجري على شاطئ بروبنتسي الآسيوي[1]، وبناء على هذا فهو يهودي بيزنطي، من المفترض أنه غادر الأراضي البيزنطية وذهب إلى بلاد الخزر حسب الخطوط التي اقترحها المسعودي.

ونلتفت الآن نحو مراسلات الخزر، التي تحتوي كما سلف القول على رسالة أرسلت كما يبدو من الأندلس في القرن العاشر إلى بلاد الخزر، ورد ملك الخزر عليها، وقد جرى نقاش طويل حول أصالتها وصحتها، وهذه المراسلات أساسية بالنسبة إلى تحول الخزر إلى اليهودية، حيث يقدم الجزء الثاني منها، المعروف باسم رد الملك يوسف، معلومات تفصيلية، وبديهي لو صح رد يوسف، فإنه يمتلك سمة الرواية الرسمية للحادثة، صادر عن مرجع كان هو الأقدر على تقديم الحقائق الصحيحة، وفي الحقيقة إنه عندما يجري الحديث أحياناً عن المشكلة الخزرية، فإن المراد بذلك بشكل رئيسي هو: هل يمكن عدّ الرسالتين تاريخيتين أم لا؟ لكن أهمية مراسلات الخزر كانت عرضة للمغالاة، ففي أيامنا بات من الممكن إعادة تكوين تاريخ الخزر بشيء من التفاصيل بدون العودة إلى رسالتي حسداي، ويوسف، لأن حتى لو قام برهان على زيفها فإن وجود الخزر مع حقيقة تحولهم إلى اليهودية، هو أمر ليس عرضة للشك، وذلك اعتماداً على أخبار العديد من الروايات المستقلة التي لا تدحض.

ولن نحاول فيما يتبع القيام بنقد تفصيلي للمراسلات، كما هو متوفر وممكن الآن على أساس النشرة المحققة لها بشكل رائع من قبل كوكوفتسوف Kokovtsov، التي توفرت بالروسية من عام 1932[2]، لكننا سنشير إلى محتويات الرسالتين وإلى بعض الوثائق المتعلقة بهما، والتي هي بالعبرية أيضاً، وإلى بعض الحجج الرئيسية التي أثيرت، وسنقيم بعض التقديرات لما نراه، ويبدو لنا مهماً.

لأنه حتى تاريخ صدور طبعة كوكوفتسوف المشار إليها أعلاه، لا بل حتى بعد ذلك، وعلى أرضية صعوبة الوصول إلى الكتب الروسية، على الأقل في الغرب، يمكن

---

(1) انظر مرقوارت: 211.

(2) المجلد العاشر لينيغراد 1932: Evreisko-khazarskaya perepiska.

القول بقي المصدر الأساسي لمعلوماتنا بشأن مراسلات الخزر يعتمد على النص الأصلي والترجمة اللاتينية للرسالتين، كما جرى نشرهما من قبل بوكستروف الأصغر منذ زمن مديد يرقى حتى عام 1660، أما بالنسبة للأحرف التي طبعها بوكستروف، في نشرته لكتاب كوسري (كوزاري) فقد سلف ذكرها، وقد انتزعها من كتاب عنوانه «قول مبسر» Qol Mebasser، أرسله إليه صديق له، وبديهي أن بوكستروف قد نظر إلى المراسلات بريبة كبيرة، وسلف أن بينا مواقف بوكستروف، لأن الباحثين الآخرين قبل أيامه، وعندها قد تصرفوا بشكل مشابه، عندما غدت المراسلات الخزرية للمرة الأولى موضع اهتمامهم، وكان عندما سمع بوكستروف بالخزر للمرة الأولى، اتجه نحو ربط اسمهم بكسرى الفرس[1]، ويوضح هذا الموقف في حد ذاته أنه وقف على أرضية كان لا يعرفها.

وصحح بوكستروف ما ذهب إليه عن العلاقة بين الخزر، وكسرى[2]، لكنه ظل يتخبط، ويجد صعوبات بالنسبة لحسداي بن شبروت الذي يعزى إليه إرسال الرسالة إلى بلاد الخزر، وهناك الآن مواد كثيرة فيها معلومات تفصيلية غنية حول هذه الشخصية الزاهية التي برزت في أندلس عبد الرحمن الناصر[3]، وكان حسداي من أصل يهودي، وكان من ضمن أعماله شفاء أمير مسيحي، واستقباله بشكل رائع في قرطبة، وهو الراعي لبعث عدد من الأعمال الأدبية الرئيسية لدى اليهود في الأندلس، وصاحب مراسلات مع علماء بلاد بابل، وذلك بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة يمكن جمعها من المصادر العربية والعبرية أيضاً، وقد عاد بوكستروف إلى كتاب «غانزمه» داود Ganz's Zemah David وهو كتاب تأريخ رئيسي يهودي في أيامه، ولم يجد فيه إلا إشارات إلى حسداي كرسكاس، وشم توب بن اسحق شبروت[4]، وكلاهما ينتميان إلى القرن الرابع عشر، ويبدو أنه لم يكن لديه أدنى فكرة عن الظروف الواقعية لوجود حسداي بن شبروت في القرن العاشر، وتبعاً لهذا فإنه عندما عثر على ذكر للمراسلات الخزرية لدى أبراهام بن

---

(1) بوكستروف على كوسري: 1/ 1/ حاشية 6.

(2) بوكستروف: Praefat.

(3) انظر لفي - بروفنسال - تاريخ المسلمين في إسبانيا (1944) 326 . . .

(4) أوضح لي من قبل ج. ل. تيشر.

داود الذي عاش ونشط في القرن الثاني عشر، تشكك في أن يكون النص مدسوساً، وجاء نص رواية أبراهام بن داود كما يلي[1]:

«ولسوف تجد طوائف من بني إسرائيل منتشرة من حدود بلدة شالة في أقصى المغرب حتى تاهرت، ومن بداية إفريقية حتى نهايتها، لا بل في أفريقيا كلها، ومصر، وبلاد الصابئة، وشبه جزيرة العرب، وبلاد بابل وعيلام، وفارس وديدان، وبلاد غرجاش التي تدعى جرجان وطبرستان، حتى بلاد الديلم، ونهر أتل حيث تعيش شعوب الخزر التي تحولت إلى اليهودية وقد أرسل ملكها يوسف رسالة إلى الحاخام حسداي ـ الأمير ـ بن اسحاق بن[2] شبروت وأخبره أنه وجميع شعبه يؤمنون باليهودية، ولقد رأينا في طليطلة بعض أبنائهم، وتلاميذهم وحكمائهم، وقد أخبرونا أن بقيتهم يؤمنون باليهودية».

ومن المدهش أن بوكستروف كان مستعداً لإخراج نظرية الدس لشرح ما لم يكن مستعداً لفهمه، وحيث أنه لم يكن يعرف حسداي بن شبروت التاريخي، فقد ضلل بالإشارات التي وردت في كتاب «زمه داود، Zemah David» التي خصت أناساً آخرين، وهكذا أخفق في أن يرى أن النص الوارد لدى أبراهام بن داود فيه تأكيد ـ حسب ما يحويه ـ للمراسلات الخزرية، هذا ولا يجوز أن يقلل من قيمة خدمات بوكستروف في جعله الرسائل متوفرة في الغرب، لكنه وهو الاختصاصي الكبير بالآداب العبرية قد أساء عرض شكوكه، هذا وإن المعلومات المتوفرة لدينا الآن أعظم بكثير مما سلف، ذلك أننا نملك الآن مصادر تلقي فيضاً من الأضواء على موضوع بلاد الخزر، ومع أخذ مسألة التطور والتغيير بعين التقدير تظل قضية بوكستروف تستحق التقدير من قبل هؤلاء الذين يحاولون فك عقدة أية قضية شائكة باللجوء بسرعة إلى نظرية الدس[3].

وعلى هذا يمكن القول إن البحث في المراسلات الخزرية قد أقلع بشكل غير موائم عندما اتخذ بوكستروف وضعاً من التفكير سلبياً، وبعدما ازدادت المعلومات، ظلت هنالك

---

(1) «سفر ها ـ قباله» تحقيق نيبور، مؤرخو اليهود للعصور الوسطى: 78. تاريخ الكتاب تبعاً لمحققه (المصدر نفسه: 13) هو 1161م.

(2) «ابن» في النص، انظر ما يلي بالنسبة لاحلال كلمة «ابن» محل «بر».

(3) انظر بشكل خاص ««Le Glozel Khazare تأليف هـ. غريغوري. بيزنتيون: 12/ 225 ـ 266 (1937).

أرضية للشك، وقد قدم بوكستروف بعض المعلومات البدائية حول مصدره الوحيد، وهو كتاب «قول مبسر»، وعندما جرى فحص هذا الكتاب عن قرب، كانت المعلومات المحصلة منه ضئيلة جداً، هذا من جهة، ويلاحظ من جهة أخرى أن مؤلفه يهودي غير معروف يدعى اسحاق أقريش، سمع ـ كما أخبرنا ـ وهو في طريق رحلة له من القسطنطينية إلى الاسكندرية في سنة 1561 ـ 1562، ثم خلال وجوده في مصر، سمع أقاويل عن مملكة يهودية مستقلة، أشارت كما يبدو إلى الفلاشة، وجرى في سنة 1577 أو بعيد ذلك، نشر ما عثر عليه حول الموضوع في القسطنطينية في الكتاب الذي رآه بوكستروف[1]، إنما من أين حصل اسحاق أقريش على نص المراسلات، فهذا لسوء الحظ غير مذكور، وليس هناك مجال لمختلف الآراء حول هذه النقطة الهامة، ويقول مان Mann: «من الواضح أنه حصل على نسخته من القاهرة[2]» ولقد افترض أن الوثيقتين كانتا من «جنيزا[3]» القاهرة، لكن ما من شيء محدد قد قيل في كتاب «قول مبسر»، ومن المحتمل أن كاتبه لم ير المراسلات حتى عودته إلى القسطنطينية.

ولاشك أن هذا غير مقنع، لكن الإنسان ملزم بالابتعاد عن الرأي القائل: إن المراسلات الخزرية ليست جزءاً أساسياً من كتاب «قول مبسر» وقد أقحمت فيه فيما بعد، مع إشارة إلى دسها في تعليقات أقريش، بغية إخفاء الإضافة.

وروى أقريش أنه بعد وصوله إلى القاهرة قادماً من الاسكندرية زار حاخاماً يهودياً، كان طبيب الوالي التركي في مصر في ظل حكم السلطان سليمان، وأخبر الحاخام أقريش أنه شاهد قبيل وقت قصير الوالي، وهو يقرأ رسالة وصلته من أمير حبشي اسمه

---

(1) نسختا البودليان (رقم 1074 و1098) حيث تعودان لمحققين مختلفين وكلتاهما لا تاريخ لهما (1577، هو تاريخ تصنيف هذا الكتاب).

(2) نصوص ودراسات.

(3) اعتقدت شعوب الشرق القديم أن الحرف كائن حي، وبناء عليه يتوجب على الإنسان عدم اتلاف الأوراق المكتوبة التي انتهى استخدامها، بل أن يقوم بدفنها، وبناه عليه حوت بعض المعابد مدافن خاصة بالكتابات، عرفت باسم جنيزا وخاصة لدى اليهود في كنسهم، وأشهر هذه الكنس كنيس الفسطاط عاصمة مصر الأولى، حيث حوى كميات هائلة من الوثائق دفنت منذ القرن العاشر الميلادي حتى القرن الماضي.

دوشدومور، ذكر فيها المساعدة التي تلقاها آنذاك في حربه من حاكم يهودي، ويمضي أقريش في حديثه ليصف زيارة قام بها حبشي آخر ـ لم يذكر اسمه ـ إلى القسطنطينية، وليذكر كلمات سمعها من سنان باشا، وزير السلطان مراد، حول موضوع المملكة اليهودية، ويستطرد فيقول: «عندما سمعت هذه الكلمات، ورأيت الرسالة التي أرسلت إلى ملك الخزر وجوابها، قررت أن أطبعهما «بقلم حديد وبرصاص» (أيوب: 19/ 24) «في سبيل تقوية الشعب، ومن أجل أن يعتقد أن اليهود ملكوا أخيراً مملكة ودولة»[1] وتشير المحتويات، وتوحي أن أقريش رأى المراسلات في القسطنطينية، وليس في مصر، ومهما يكن الحال إنه في القسطنطينية قد جرى ـ كما سلف القول ـ نشر كتابه.

وأراد لاندو[2] حاذياً حذو غريغوري تفحص الكلمات «التي أرسلت إلى ملك الخزر ورده عليها» وافترض أن «الرسالة» التي ورد ذكرها هنا لا علاقة لها بالأصل بالمراسلات الخزرية، لكنها كانت بالحقيقة رسالة الأمير الحبشي دوشدومور إلى والي مصر، ومن الواضح أن هذا الخطأ واضح لأن:

(أ) مسألة رسالة دوشدومور مرتبطة بزيارة أقريش إلى مصر تحت حكم السلطان سليمان (1520 ـ 1566)، وقد مضى أقريش في قوله ليصف أشياء أخرى مختلفة تماماً، وهي زيارة حبشي آخر إلى القسطنطينية، وتعليقات سنان باشا في ظل حكم مراد (1574 ـ 1577)، ولا يوجد سبب يدعوه للعودة إلى الحديث عن رسالة دوشدومور.

(ب) لم ير أقريش رسالة دوشدومور قط بل رأى الرسالتين الأخرتين.

(ج) لو أن رسالة دوشدومور كانت المعنية لأشار إليها تحت عنوان «الرسالة» كما ذكرها من قبل، ويمكن عندها للداس، كما هو متصور، إضافة العبارات التالية: «التي أرسلت إلى ملك الخزر ورده» وعندها يمضي سياق العبارة بكل هدوء وتقبل، لكن الذي جاء بالنص عبارة «رسالة» (egereth) ولابد أن هذا أصيل، لأن الداس ليس لديه من سبب ليغير عبارة «الرسالة» (ha-egereth) لو أن أقريش قد كتبها، وعليه من الواضح أن الذي عناه أقريش رسالة ثانية، ليست رسالة الحبشي دوشدومور.

---

(1) تبعاً لنص قول مبسر في كوكوفتسوف.

(2) م. لاندو «الوضع الحالي للمشكلة الخزرية» صهيون 1943، الفصل الأول (بالعبرية).

إنني أعتقد أن هذه النقاط كافية لرفض الرأي القائل أن «قول مبسر» قد تعرض للدس، وما من شيء نهائي قد جاء يؤيد ذلك، ويقول لاندو: لابد أن أقريش عندما كان في القسطنطينية في نهاية القرن السادس عشر قد عرف شيئاً ما حول الخزر، وأدرك أن مملكتهم قد زالت من الوجود منذ أمد طويل، والظاهر أنه لم يسمع عنهم أبداً، مع أنه كان يعرف أسطورة نهر سامبوشين Sambation، ويعطي أقريش الانطباع بأنه استخدم المراسلات ليؤيد أطروحته حول وجود مملكة يهودية قائمة في زوايا النسيان، ويؤكد النص بوضعه الحالي هذا، ويبدو أن اسم حسداي بن شبروت، قد حذف من قبل أقريش من النص الذي تولى نقله، على أساس أنه غير معروف من قبله، ولاشك أن الداس كان سيضيفه، وخلاصة الأمر، يبدو أنه قد رأى نسخة من المراسلات في القسطنطينية أو في مكان آخر في الحقبة الواقعة ما بين 1574 و1577، (عهد حكم مراد) وأعاد بعد ذلك بمدة وجيزة إصدارها بنية طيبة.

لعل ما قيل حتى الآن حول الدس في كتاب أقريش فيه كفاية، وإذا ما اعتقد إنسان ما أن المرسلات الخزرية قد نظمت للمرة الأولى عام 1577م، ونشرت في كتاب «قول مبسر»، فإن مسؤولية البرهنة تقع بدون شك على عاتقه، حيث يتوجب عليه البرهنة على أن العديد من المخطوطات القديمة ـ التي بدا أنها تحتوي على إشارات المراسلات ـ هي جميعاً قد تعرضت للدس منذ نهاية القرن السادس عشر، ولاشك أن هذا مطلب صعب جداً، إن لم نقل مستحيل.

وعندما نحاول المضي إلى ما وراء النشرة المحققة من كتاب «قول مبسر»، فإن النتائج لن تكون مرضية تماماً، إن المخطوطة الوحيدة المعروفة التي تحوي رسالة حسداي ورد يوسف هي في مكتبة كنيسة المسيح ـ أكسفورد[1]، وتقدم هذه النسخة نصاً شديد الشبه بالنص المطبوع، اعتماداً على طبعة كوكوفتسوف، وحسبما تبين لي من فحص قمت به شخصياً، ليس من السهل الحديث عن أصل العلاقة بينهما، لكن من المستبعد أن تكون

(1) رقم 193، وبفضل كرم ومساعدة سلطات كنيسة المسيح تمكنت من مراجعة هذه المخطوطة الهامة، ليس في البودليان فحسب، بل في مكتبة جامعة غلاسكو، علماً أن مراجعتها (من قبلي) ثانية جعلتني أدرك أن ما من شيء تقريباً قد فات كوكوفتسوف.

المخطوطة ـ كما اقترح مراراً ـ هي نسخة منسوخة عن النص المطبوع، والأمر كما قال كوكوفتسوف: عملت المخطوطة بشكل مباشر، أو غير مباشر، على أن تكون مصدراً للنص المطبوع ومع هذا كل فإن المخطوطة ليست قديمة جداً.

وهناك مخطوطة أخرى في مكتبة لينينغراد العامة[1]، وهذه المخطوطة مثلها مثل مخطوطة كنيسة المسيح غير مؤرخة، وهي تحتوي على نص من رد يوسف، وذلك وسط مواد تلمودية، وهذا النص أطول من النص الموجود ضمن مخطوطة كنيسة المسيح والنص المطبوع من قبل أقريش، ولا تحتوي هذه المخطوطة على رسالة حسداي، ولقد لفت الانتباه إلى هذه المخطوطة من قبل هاركفي، وهو باحث نشيط في تاريخ الخزر القديم، وكان ذلك سنة 1874م، وقد عدّها الأصل غير المشكوك فيه للنص المعروف من قبل[2]، ولسوء الحظ فإن النص المطول من رد يوسف قد نقل إلى مكتبة لينينغراد من قبل فيركوفتش، الذي حصل عليه ـ كما يبدو ـ من مصر في الستينات من القرن الماضي[3]، ولم تمنع هذه العلاقة مع فيركوفتش من إقدام الباحثين على عدم الشك فيها، وعدّها أثراً قديماً لاريب فيه، وعلى كل حال يبدو أننا لسنا في هذه الحالة بحاجة مباشرة إلى الشك بوجود عملية تزييف، ولقد أعلن شولسون الذي تفحص المخطوطة، أنها بأكملها قد كتبت بخط واحد، ولا توجد فيها إضافات من أي نوع كان[4]، وقد افترض أن تاريخها يرقى إلى القرن الثالث عشر[5]، وبناء عليه ما لم يكن هذا التقدير للتاريخ غير صحيح تماماً، وأن فيركوفتش مسؤول عن هذه المسألة بأكملها ـ على عكس طرائقه المعتادة في التلفيق التي تحدث التغييرات، وتلحق الإضافات إلى الوثائق الأصيلة ـ لربما يمكننا الاعتراف بالنص المطول على أنه أقدم بشكل كبير من النص المطبوع من قبل أقريش، ولم يتردد هاركفي ـ على الرغم من مواقفه الناقدة لفيركوفتش ولاكتشافاته ـ في تقبل المخطوط وعدّها أصلاً للنص

---

(1) مخطوطة عبرية 104، من مجموعة فيركوفتش الثانية.

(2) Measeph Nitdahim, أو No. 9.

(3) تشولسون ـ المجموعة ـ ط. ألمانية، بطرسبورغ 1882: 143، حاشية 6. (وقوله القرن الماضي أي العشرين).

(4) المصدر نفسه: 520 (اقتبس بشكل مماثل من قبل كوكوفتسوف، الطبعة الروسية 1884: 499).

(5) المصدر نفسه: 143، الحاشية.

المختصر المنشور من قبل أقريش، وذلك كما سلف القول، وإذا لم يكن رأي هاركفي - الذي يتوافق للوهلة الأولى مع رأي شولسون - صحيحاً فإن معظم الناس سيوافقون على آراء كوكوفتسوف الحذرة[1]، في أنه لابد من وجود أصل لكلا النصين، هو هذا النص الأصيل الذي احتفظ به بشكل عام بصورة أفضل وأطول.

ولاشك أنه لا يمكن النظرة بجدية إلى الآراء القائلة بأن المراسلات الخزرية هي بمجملها اختراع، زيف في القرن السادس عشر، وذلك على ضوء الإشارات إليها الواردة بشكل واضح في كتابات ذات تاريخ أبكر، فلقد سلف ونقلنا عن واحد منها مثل إبراهام ابن داود، وهو مصدر ليس وحيداً، وبصرف النظر عن الإشارات العامة إلى تحول الخزر إلى اليهودية، فإننا نجد مثل هذه المصادر متوالية منذ القرن العاشر على الأقل[2]، فنحن نمتلك ما يبدو أنه اقتباس أصيل لرد يوسف يرقى تاريخه إلى أيام الحاخام يهودا بن برزللي البرشلوني، الذي يعود تاريخ كتابه «سفرها - إتيم» إلى ما بين 1090 و1105[3] م.

وقد كتب الحاخام يهودا البرشلوني ما يلي: «لقد رأينا في بعض المخطوطات نسخة عن رسالة بعث بها الملك يوسف بن هارون كاهن الخزر [ها - كوهن تصحيف ها - كاغان أي الخاقان][4] إلى الحاخام حسداي بن اسحاق، ونحن لا ندري فيما إذا كانت الرسالة أصيلة أم لا، وفيما إذا كان شعب الخزر الذي هو شعب تركي، قد غدا حقاً يهودياً، وليس من المؤكد فيما إذا كان جميع ما ورد في الرسالة هو حقيقة وصدق أم لا، لربما هناك زيف ما قد دوّن فيها، أو أن بعض الناس قد أضافه إليها، أو هناك خطأ ما قد اقترفه الناسخ. . . والسبب في إقدامنا على التدوين في كتابنا أشياء يبدو مبالغاً فيها هو أننا وجدنا في رسالة الملك يوسف هذا إلى الحاخام حسداي، أن الحاخام حسداي قد سأله عن أصله، وعن

---

(1) عد إلى المدخل.

(2) لعل أقدم إشارة يهودية إلى تحول الخزر إلى اليهودية هي التي وردت في كتاب «الرياض والحدائق» للقرقساني (المتحف البريطاني OR 2492) وتاريخه حوالي 937م، وقد نقل عنه لاندو في بحثه «الوضع الحالي»، هذا وإن إشارات أخرى وردت لدى سعيده غاون، يمكن أن تكون أبكر (انظر الفصل السابع).

(3) النص لدى كوكوفتسوف.

(4) انظر بولياك، التحول: 4.

أحوال ملكه، وكيف أصبح أبوه يهودياً، ومدى عظم مملكته ودولته، وقد أجابه عن كل سؤال، وبين جميع الخصوصيات في الرسالة[1]»، وأعقب هذا عرض جزء من رد يوسف يتوافق بشكل عام مع الرواية المطولة، ويؤيد رأي كوكوفتسوف في أن النص المطول يحتوي على الرسالة الأصيلة، وذلك على عكس النص القصير.

وليس من الخطل الإعلان أن المراسلات الخزرية الحاوية لرسالة حسداي ورد يوسف قد كانت موجودة أيام الحاخام يهودا البرشلوني، ويقول كوكوفتسوف: ليس لدى الحاخام يهودا ما يقوله ولو كلمة واحدة حول رسالة حسداي[2]، وهذا صحيح، بيد أن وجودها مؤكد لا ريب فيه، ومع التسليم بهذا كله، تظل صحتها وأصالتها غير مؤكدة لا ريب فيه، فمن المثير حقاً أن الحاخام يهودا نفسه قد عبر عن شكوكه في رد يوسف، ونجد للوهلة الأولى أن حقيقة وجود الآراء المرتابة التي جرى تبنيها منذ تاريخ مبكر قد يدفع على تأييد شكوكنا، إنما علينا أن نلاحظ أن شكوك الحاخام يهودا ليست قاطعة، وبالنسبة لبوكتروف فلعله عني بكل بساطة أنه لم يملك معلومات عن الخزر.

ويمكن للبينات الخارجية أن تنقلنا أبعد من هذا قليلاً، والمقصود هنا هو أن المراسلات كانت موجودة في الأندلس في القرن الحادي عشر، وأما مسألة الصحة فلسوف تقرر - إذا كان ذلك ممكناً - على أرضيات داخلية.

وتبدأ رسالة حسداي بأبيات من الشعر جرى نظمها لتأتي بمثابة توقيع ومطلع لها، وجاء في أولها: «أنا حسداي بن اسحاق بن عزرا بن شبروت - مناحيم بن ساروق[3]» ولم يقدم الاسم الأخير بتمامه في نص «قول مبسر» لكن بصورة لاشك فيها، وإنه لأمر وثيق الصلة أن نقترح أن أبيات الشعر الحاوية للتوقيع وجميع ما تبعها قد صيغت من قبله بحكم وظيفته كاتب حسداي الخاص، لكن من البداهة بمكان إن وجود أبيات الشعر لا يبرهن على أن رسالة حسداي قد كتبت من قبل مناحيم بن ساروق (مع أن هذا قد قيل)، وهي على هذا أصيلة، وربما يمكن الوصول إلى هذه المحصلة من زاوية أخرى، فقد قام لاندو

---

(1) تبعاً لنص كوكوفتسوف.

(2) انظر ما سبق في المدخل.

(3) انظر ما سلف حول «بر» و«ابن».

بمقارنة جميع كتابات مناحيم مع رسالة حسداي، وذلك من منطلق التفكير والأسلوب، ولم يتوفر لديه أدنى شك أن الرسالة رسالته[1]، وهنالك تقدير آخر هو أن أبيات الشعر ذاتها موجودة في مخطوطة عبرية للكتاب المقدس، جرى فحصها على حدة من قبل كل من هاركفي وإ. دينارد E. Deinard، حيث عزيت بشكل حاسم إلى مناحيم[2]، ويبدو نص القصيدة هنا مستقلاً عما جاء في «قول مبسر» مع أن تاريخه متقارب ومن الحقبة نفسها[3].

وتلح القصيدة، وتصر على الأمجاد العسكرية لحاكم الخزر، وتنصرف بعد عدة أسطر لتوقف حديثها على الرغبات والأماني الطيبة لنجاح عساكره، ويظهر هنا ما يبدو وكأنه إشارة إلى نصر خاص، وذلك في قوله:

انظر الآن وقدر هؤلاء هم أركان الأرض، فمن الذي سمع من قبل بمثلهم أو رأى.

الباقون لابد أن يسيطروا على الأقوياء، لقد هزموهم ودمروا [؟] مدينة مع كل ما كان فيها[4].

لقد مدت يد العلي العون لهم وأنجدتهم.

هذا صنيع القادر، وهذا ما أنزله بالمملكة الآثمة.

ولفت لاندو الانتباه إلى هذا النص، وأوضح أن عبارة «المملكة الآثمة» قد استخدمت بشكل متواصل لتعني «بيزنطة[5]»، وهذه مسألة سنشير إليها ثانية، عندما نشرع بالبحث فيما يعرف باسم وثيقة كمبردج.

ويشرع القسم المنثور من رسالة حسداي، بعد التحيات والعموميات، بتعريف ملك الخزر بالوضع الجغرافي للأندلس، ويقدم الكاتب بعض المعلومات، من النوع نفسه حول الخزر، وهي معلومات تبدو غامضة تماماً، ويبدو أن رغبته كانت تزويد مراسله بمعلومات

---

(1) «الوضع الحالي»، الفصل الثاني. انظر أيضاً بحثه المبكر المنشور في براسلو (1938) «Beitrage Zum chazarenperoblem» ويتخذ لاندو موقفاً شديداً في نقده لبولياك لقوله في خزاريا أن مدخل (سفر قيرياث: 21/ 19 . . .) هو من تصنيف مناحيم (خزاريا: 21).

(2) لاندو المصدر السالف، الفصل الثاني.

(3) انظر كوكوفتسوف، المدخل.

(4) أو «تخليصها»؟ انظر عاموس: 6/ 8.

(5) انظر ما سلف الفصل الرابع.

يمكنه فيها من تصور وضع الأندلس بالموازاة مع أوضاع بلاد الخزر، وفي هذا السبيل استخدم الكتابات الجغرافية العربية، والنغمة العامة للرسالة هي محاولة التعرف والاستفسار، وبدت معلومات الكاتب حول بلاد الخزر، وربما حول أهميتها، وليدة تلك الأيام وتتعلق بها، وقال إن اثنين من يهود الأندلس، هما: الحاخام يهودا بن مائير بن ناثان، والحاخام يوسف هجريس، قد زارا بلاد الخزر في تلك الآونة، لكنه لم يدع أنه تكلم معهما، وقد تحدث عن ثراء الأندلس الطبيعي، كما تحدث عن نفسه كمسؤول عن الدخل الصادر عن التجارة الأجنبية، وبين أنه كان من بين الأجانب الذين قدموا إلى الأندلس أناس عرفوا باسم «رسل تجار خراسان[1]»، وأن هؤلاء الخراسانيين - إذا صح أنهم كانوا كذلك - قد أكدوا لكاتب الرسالة - كما أخبرنا - أن مملكة يهود الخزر قائمة، وأنه لم يصدقهم في أول الأمر.

وقال كاتب الرسالة فيما بعد: إنه سمع رواية حول يهود الخزر من رسل بيزنطيين، وجاء نص هذه الفقرة كما يلي: «لقد سألتهم (أي رسل بيزنطة) حول هذه القضية [يعني ما حكاه رسل تجار خراسان]، وأجابوني إن ذلك صحيح، وإن اسم تلك الدولة هو مملكة الخزر[2]، وأنه بين القسطنطينية وبلاد هذه المملكة مسيرة خمسة عشر يوماً بوساطة البحر، وقالوا: يعترض بيننا وبينهم براً عدد من الشعوب، واسم ملكهم هو يوسف، وتأتي السفن إلينا من بلادهم جالبة الأسماك والجلود [أي الفراء، كما يرجح]، وجميع أنواع التجارات، وهم داخلون بأحلاف معنا، ومحترمون من قبلنا، نتبادل معهم السفارات والهدايا، وهم أقوياء، ولديهم معسكر حصين لفئات الغزاة منهم، ولجيوشهم التي تتقدم زاحفة أحياناً».

ويبدو حسداي هنا - فيما لو كان هو مرسل الرسالة حقاً - وهو يخبرنا كيف تعرف على اسم مراسله، هذا ودُعي يوسف في عنوان الرسالة بـ «ملك الخزر» وذلك انسجاماً وتمشياً مع هذه الفقرة، وذلك في حين نراه يظهر في عنوان الرد تحت اسم «ملك (توغارمين) الترك»، ومهما يكن الأمر، من البديهي أن هذه العناوين قد أضيفت من قبل

---

(1) إنه أمر غير واضح لماذا توجب على رسل من خراسان زيارة بلاط قرطبة، انظر ما يلي.

(2) النص «الخزر» انظر ما يلي.

المحرر، هذا وليس هنالك أرضية للتأكد ـ حتى ولو برهن الرد على أنه أصيل ـ من أن عبارة «ملك الترك» كانت لقبه الرسمي بالعبرية.

وقالت الفقرة التي اقتبسناها أعلاه إن بلاد الخزر تبعد مسيرة خمسة عشر يوماً بالبحر عن القسطنطينية، ويمكننا التعجيل قليلاً، لنذكر أن وثيقة كمبردج قد جعلت المسافة تسعة أيام في البحر، وهنا لعل كاتب الرسالة قصد طول مسافة الرحلة حتى عاصمة الخزر على الفولغا، بينما فكر الآخر بنقطة أخرى أقرب إلى القسطنطينية، ولابد أن الطريق المعني بفقرتنا هو طريق البحر الأسود فبحر آزوف، فممر الدون ـ الفولغا، الذي يدعى في أماكن أخرى باسم «طريق الخزر»[1]، ولابد أن الحصن المقصود هو حصن ساركيل Sarkil، الذي بني لصالح الخزر من قبل مهندسيين بيزنطيين سنة 833م[2].

ولعله لم يذكر في مكان آخر بشكل واضح كما ذكرنا هنا أمر متاجرة الخزر ـ بسفنهم كما يبدو ـ مع القسطنطينية، وقد قيل كان من بين البضائع التي كانوا يجلبونها السمك والفراء كما يظهر، فهذا ما جاء ذكره بشكل خاص، ونحن نعرف مما جاء بالمصادر العربية أن هاتين السلعتين كانتا من بين صادرات الخزر إلى أراضي الإسلام، هذا وقد أشير ثانية إلى قوة الخزر العسكرية.

وتبعاً لما جاء بالرسالة، قرر حسداي بعدما سمع ما سمع، أن يتصل بملك الخزر، وتبعاً لما ذكره، قد لاقى بعض الصعوبات في سبيل تحقيق ذلك، فقد أرسل أولاً رجلاً اسمه مار اسحق بن ناثان إلى القسطنطينية، مع تعليمات بأن يتابع طريقه من هناك إلى بلاد الخزر، لكن رسوله لم يلق التشجيع من قبل الإمبراطور ـ ربما الامبراطور قسطنطين بورفي روجنتوس ـ لمتابعة رحلته، ولهذا عاد فيما بعد إلى الأندلس، دون القيام بزيارة بلاد الخزر ثم قام حسداي تبعاً لرسالته أيضاً ـ بدراسة إمكانات إرسال رسالة إلى بلاد الخزر عبر القدس، فبلاد الرافدين فأرمينية، لكن وصول سفارة إلى قرطبة من قبل «ملك غبليم الذين كانوا سقلاب»[3] غير الخطط، فقد كان مع هذه السفارة اثنين من اليهود هما: مار

---

(1) انظر غ. فيرنادسكي ـ روسيا القديمة ـ بيل 1943، 350، نقلاً عن الصقلي فيتاكونستانتيني.

(2) الفصل السابع.

(3) انظر «صقالبة».

شاؤول، ومار يوسف، اللذان ما أن سمعا برغبة حسداي بالاتصال بالخزر، حتى عرضا خدماتهما بالتوسط والمساعدة، وجاء اقتراحهما مرضياً بالنسبة لحسداي، وعلينا أن نفهم أن الرسالة وصلت بالفعل إلى غايتها بوساطتهما وقد تسلمها ملك الخزر ـ حسبما جاء بالرد ـ من حاخام اسمه يعقوب أو (ل. ف) اسحق بن أليعازر، وكان من يهود وسط أورية.

ويتحدث الكاتب العربي المقري[1] عن سفارة قدمت إلى قرطبة من عند أوتو ملك الصقالبة، وقد حددت بأنها الزيارة التي قام بها جون أوف غورز سفير الامبراطور أوتو الأول في سنة 953 ـ 955[2]، إنما أية أمة قد عنيت بعبارة «غبليم الذين كانوا سقلاب»، فأمر لم يتقرر بعد[3]، وقدم غريغوري رأياً قال فيه إن الغبليم هي «غاليا»[4]، التي يمكن لاسمها أن يعرض بالعبرية بحيث يلفظ «غيبهاليم»، وهنا من المغري أن نعدّ أن «سقلاب» هم صقالبة المقري أنفسهم، حيث كانوا من رعايا الامبراطور الألماني، ويشير كلا الشكلين إلى «السكسون»، وبناء عليه فإن رسالة حسداي لابد وأنها تشير عند هذه النقطة إلى زيارة جون أوف غورز، ومهما يكن الحال فقد قيل إن مار شاؤول، ومار يوسف قد أخبرا حسداي، أنه قبل سنين قدم يهودي خزري ـ تبين على الأقل أنه كان يسكن من قبل في بلاط ملك الخزر ـ واسمه مار عمران، إلى زيادة الأندلس[5]، ولكن حسداي أخفق ـ بعد البحث ـ في العثور عليه، ولابد أن يشير هذا إلى أن الاتصالات مع بلاد الخزر كانت نادرة.

هذا وإن رأي بولياك في أن المراسلات بوضعها العام هي في الحقيقة غير مزيفة، لكنها من نتاج القرن الحادي عشر (إحالة على الحاخام يهودا البرشلوني)، صيغت بشكل أدبي موائم لنشر المعلومات حول الخزر بين اليهود[6]، وهو رأي لا يمكن الدفاع عنه، فلو كان

---

(1) 1/ 253. ابن خلدون: 4/ 143.

(2) انظر ليفي ـ بروفنسال ـ المصدر السالف: 383.

(3) ناقش كوكوفتسوف القضية طويلا، المصدر السالف: 62، الحاشية 3.

(4) في مجلة ر. دوسو: 489. إنني أدين بالتعرف إلى هذا المصدر إلى الأستاذ أ. م. هني مان.

(5) كذا كما يبدو «با ـ املينو» أو «إلى أرض الغبليم».

(6) التحول، الفصل الثالث. انظر أيضاً خزاريا: 19. كان كاتب المراسلات حياً في الأندلس في 1070 ـ 1080. أخذ لاندو محقاً في نقده ـ المصدر السالف ـ استثناء لهذا.

الأمر كما قال، ما هو الغرض من ذكر نصف دزينة من الأسماء المجهولة على أساس أنها أسماء رجال شاركوا بشكل أو آخر في بحث حسداي عن المعلومات؟ ولماذا رسالة حسداي بالأصل، التي مع أنها أطول من رد يوسف بشكل لابأس به، فيها حقاً القليل من المعلومات حول الخزر لو أن الغرض من كتابتها وكتابة الرد ـ كما افترض بولياك ـ هو بكل بساطة تقديم معلومات عامة عن بلاد الخزر؟ لو أن الرسالة هي مدخل إلى المعلومات الواردة حول الخزرفي الرد، فتلك حالة شاذة جداً، ذلك أنها مليئة بالحقائق حول الأندلس والأمويين وهي أمور لا علاقة لها بمملكة الخزر، ثم إنها قد ذكرت بصورة مفصلة جداً، وبينت بفقرات كبيرة كيف كتبت وأرسلت، وهنا إنه لو كانت الغاية نشر بعض المعلومات، لاشك أنه كان بإمكان المبشر أو كاتب المناشير تحقيق هدفه ببذل جهود أقل، ووصف مملكة الخزر بنص أقصر.

ويعترض بولياك محاججاً ضد تاريخية رسالة حسداي، على أساس أن المرسل لم يقرأ ـ كما يبدو ـ قط الأدبيات العربية الجغرافية والتاريخية حول الخزر، وهذا أمر لا يمكن التفكير به بالنسبة لرجل له مكانة حسداي في أندلس القرن العاشر، وهذه المحاججة غير مقنعة، ففي الحقيقة يعطينا مرسل الرسالة انطباعاً وتصوراً بأنه قد عاد إلى عدد من الكتب يفترض أنها من كتب الجغرافية العربية، واستفاد مما جاء فيها حول أوضاع مملكة الخزر[1]، فهو يذكر عدداً من التفاصيل مستقاة من هذه المصادر، من ذلك على سبيل المثال: إقدامه على تصحيح بعض الآراء حول خطي العرض لكل من قرطبة والقسطنطينية، ومع هذا فإن بولياك يعدّ ذلك تناقضاً داخلياً ضمن الرسالة[2].

وقبل بولياك، اتخذ مرقوارت خطاً مشابهاً[3]، واعتقد أن حسداي لابد أنه كان لديه بعض المعلومات ـ حول الخزر، وأشار بهذه المناسبة إلى الراذانية، الذين أخذتهم رحلتهم التجارية المستمرة من الشرق إلى الغرب براً عبر طرق مرت من أوربا إلى (خمليخ) «عاصمة مملكة الخزر»، ومن هنالك إلى ما وراء النهر ـ عبر بلاد بحر الخزر ـ حتى بلاد

---

(1) راجع ما سلف.

(2) التحول: الفصل الثالث.

(3) مرقوارت: 24.

الصين، وتبعاً لابن خرداذبه (حوالي 846) الذي هو مصدرنا حول الراذانية، لقد كانوا من يهود الأندلس[1]، لكن في رسالة حسداي نجده قد سمع للمرة الأولى حول وجود ملك يهودي من الرسل الخراسانيين، والبيزنطيين، وبناء عليه فإن الرسالة ـ تبعاً لمرقوارت ـ لا يمكن عدّها أصيلة، ويدل هذا ثانية على قصور بالتصور، ذلك أنه من المفهوم أن «رسل تجار خراسان» و«الراذانية» هم القوم أنفسهم، حيث جرى عدّهم مغاربة (أندلسيين) في المشرق، ومشارقة في المغرب، ومهما يكن الحال، يلاحظ أن كاتب الرسالة أشار مراراً إلى أنه كان يعرف شيئاً ما حول الخزر؟ وأن مصادر معارفه ليست الكتب وحدها، بل بعض المعلومات التي كانت متداولة في الأندلس[2]، ثم إنه وإن تحدث في أول الرسالة عن «الدهشة التي استولت علي لدى سماعي عن مملكتكم، الخبر الذي لم يصلنا من قبل» ينبغي علينا ألا نحمل الأمر أكثر مما يحتمل، وسيكون من الخطأ إقامة نقاش رسمي ضد صحة الرسالة، على أساس ادعاء الجهل من قبل كاتبها لموضوع الخزر.

ويوجد في رد يوسف فقرة هامة جداً، تثير عدداً من الأسئلة، من الموائم مناقشتها هنا، ارتباطاً بآراء بولياك، ومرقوارت التي فرغنا من الإشارة إليها، فنحن نقرأ في النص المختصر قوله: «إن ما أخبرتنا به حول بلادك (أي الأندلس)، وأصل ونسب ملكك قد وصل إلينا من قبل، فلقد جرى من قبل تبادل الرسائل والأصداء الحضارية بين آبائنا، وهذه الأمور محفوظة في كتبنا، ومعروفة من قبل جميع الشيوخ في بلادنا، وفي جميع الشرق حسبما ذكرت، كما وإننا سنجدد الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين آبائنا ونورثها إلى أبنائنا، هذا وليس لعبارة «جميع الشرق حسبما ذكرت» معنى واضحاً، ذلك أنه من المؤكد أننا لا نجد أية إشارة إلى رسائل متبادلة بين الأندلس ومملكة الخزر، في تاريخ أبكر من تاريخ نص رسالة حسداي.

ومن الواضح أن الرسالة كما هي بين أيدينا الآن ليس قد لحقها التصحيف في بعض الأماكن فقط، بل إنها غير كاملة، فقد بين لاندو أن هناك إشارة في الرد للبحث من قبل

---

(1) عند ابن خرداذبه: 153، الراذانية التي احتفظ بها ابن الفقيه: 270 وهي ربما مأخوذة من الكلمة الفارسية («راهدان» وهي تعني الذي يعرف الطريق، انظر مرقوارت: 350).

(2) انظر ما سيأتي.

حسداي عن إمكانية قدوم سفير خزري إلى قرطبة[1]، ولا يوجد أثر لمثل هذا البحث في متن نص رسالتنا الحالي، فهل احتوت الرسالة آنذاك بالأصل على بعض الإشارات إلى اتصالات متقدمة بين الأندلس ومملكة الخزر؟ والجواب لهذا السؤال: يبدو أن ذلك لم يحصل، وتختلف قراءة هذه الفقرة عنها في النص المطول، فقد جاء هناك: «لقد جرى تبادل الرسائل والأصداء الحضارية بين آبائنا، وهذه الأمور محفوظة في كتبنا ومعروفة من قبل جميع الشيوخ في بلادنا، ونحن نسمع دائماً عن بلادكم، وعن عظمة ملكها ـ ليحفظه خالقه، وليعيده إلى مملكة آبائه في الشرق ـ حسبما ذكرت، كما وأننا سنجد الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين آبائنا، ونورثها إلى أبنائنا»، وفي هذا الكلام إشارة إلى الفقرة التالية التي وردت في الرسالة حيث قال: «إنني سأطلع مولاي الملك على اسم الملك الذي يحكمنا: إن اسمه هو عبد الرحمن بن محمد (بن عبد الله بن محمد)[2] بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن... وكان عبد الرحمن الذي هو الثامن في التسلسل، هو الذي قدم إلى الأندلس، وذلك عندما استولى العباسيون ـ من أقربائهم، والذي يحكمون في العراق الآن ـ على السلطة منهم... لقد كان ابناً لمعاوية بن هشام بن عبد الملك، فلقد قدم كاتب الرسالة هنا نسب أمويي الأندلس، وأشار إلى أن العباسيين كانوا مغتصبين، وجاءت أصداء هذا في رد يوسف الذي عبر عن أمانيه الطيبة في أن يتمكن الأمويون من العودة إلى الخلافة في المشرق.

وبعيد عن الاحتمال ألا يكون الخزر يعرفون معرفة كاملة الوضع السياسي بين العرب، أعدائهم القدامى، ومن المؤكد أن رد يوسف ـ لو أنه وثيقة صحيحة ـ قد حوى فكرة عن الحكام المسلمين في المشرق، وهذا بعيد الوضوح في ثنايا النص القصير موضع التقدير، وجرى إنقاذ الوضع في هذا المجال بوساطة النص الطويل الذي يشير بوضوح إلى أن كاتب الرد كان يعرف العلاقات بين العباسيين والأمويين.

ما الذي سنقوله عن قوله في الرد إنه «قد جرى من قبل تبادل الرسائل والأصداء الحضارية بين آبائنا»؟ ألم يعرف حسداي التاريخي أخبار الاتصالات المبكرة بين الأندلس

---

(1) الوضع الحالي: الفصل الثاني.

(2) ينبغي استخدام اللفظين.

وبلاد الخزر؟ والجواب: من المؤكد أنه عرف، وفي الحقيقة يشير كتاب حسداي إلى حدث يمكن وضعه تحت عنوان بارز وهو: «اتصالات سالفة مع بلاد الخزر»، والمعنى بذلك زيارة رحالة يهودي إلى الأندلس، حدثت في حوالي 880م، واسمه إلدادها ـ داني، وقد جاء ذكر رحلة داني إثر طرح سؤال حول اللغة التي يتحدث بها الخزر، ومن الواضح أن المقصود من ذلك كان توجيه السؤال إلى ملك الخزر فيما إذا كان يعرف شيئاً ما عنه[1]، ولا تلقي نصوصنا من الجواب ضوءاً حول هذا.

هل كان الداد خزرياً؟ من المحتمل أنه كان، وهناك حقيقة واحدة حوله ـ تظهر وسط ركام الترهات الواردة في المصادر ـ هي أنه أصر على التكلم بالعبرية، ويمكن بدون شك إيضاح هذا بأشكال أخرى، فلربما كان السبب الأبسط هنا هو لعله لم يعرف العربية، ولا يمكن التفكير على هذه الشاكلة لو أنه كان يهودياً فلسطينياً أو أفريقياً كما اقترح، بل يبدو من الطبيعي أنه كان خزرياً، وقد احتفظ ببعض الكلمات العبرية التي استخدمها في رسالة بحث عنه بعثت من قبل يهود القيروان إلى زمه غاؤون Zemah Gaon في العراق[2]، ومال فرانكل Frankel إلى الاعتقاد أنه يمكن إيضاح هذه الأمور من الإغريقية.

وبناء عليه كان إلداد من بلد تحدث بالإغريقية[3]، ويعتقد غراتز أنه لربما كان مبعوثاً من قبل الكرتيز Karaites[4]، وقد سمح له بزيارة القسطنطينية حيث من المفترض أنه سمع عن الخزر الموجودين على ضفاف الفولغا، وكما هو معلوم يشير إلداد إلى بلاد الخزر في قصته، ويذكر أن سبط شمعون ونصف سبط منشا يعيشون هنالك[5]، وقد قال: إن تعداد الخزر كبير جداً، وهم يأخذون الجزية من ثمان وعشرين مملكة، ويدفع بعض المسلمين الجزية لهم.

وبالنظر للسمات الخيالية التي تتسم بها معظم رواية إلداد، فإننا لا يمكننا الاعتماد كثيراً على ما قاله حوله الخزر، لكن هذا له بعض العلاقة بما جاء في مصادر أخرى، فلقد

---

(1) كذلك عند كوكوفتسوف، المصدر السالف: 70، حاشية 1.

(2) انظر أ. نيبور في المجلة اليهودية الربعية: 1(1889) 105.

(3) راجع المصدر نفسه: 109.

(4) Geschichte، الطبعة الثالثة: 5/ 239.

(5) انظر ما يلي.

سلف ونقلنا عن ابن فضلان حديثه عن الخمس والعشرين زوجة اللواتي كانت كل واحدة منهن ابنة ملك من الجوار، وكن يعشن في حريم خاقان الخزر، وتقدم بعض الروايات عن نص إلداد رقم خمس وعشرين مملكة بدلاً من ثمان وعشرين، كانت تابعة لمملكة الخزر، ومن جديد ذكر الرد 9 + 15 + 13 دولة تدفع الجزية ليوسف، وهنالك أساس للتفكير أن الدول التسعة شكلت ولايات بلاد الخزر[1]، ويتواءم رقم 13 + 15 المتبقي مع الرقم الذي قدمه إلداد، أما بالنسبة لقبيلة دان Dan قبيلة إلداد، فقد ذكر أن ديارها كانت على ضفاف نهر سمباشون Sambation، ومن المفيد محاولة إيجاد جواب للتساؤل فيما إذا كان نهر سمباشون الأسطوري هو نهر سمباتاس[2] Sambatas وهو الذي كان تبعاً لقسطنطين بورفي روجنتوس Constantine Porphy Rogentus اسماً آخر من أسماء كييف، أو من أسماء الدينبر Dnieper أو لربما من أسماء الدون[3] Don، ومهما يكن الحال من الممكن أن إلدادها داني قد كان يهودياً خزرياً، مثل آخرين قدموا إلى الأندلس خلال القرون، لكن ليس هنالك أدنى إشارة إلى سفارة خزرية إلى الأندلس ضمن نص رسالة حسداي، كما أنه لم يوجد أي شيء أصلاً يتواءم مع الأشياء الأخرى التي قيلت.

والحل الممكن لهذه المصاعب هو أن كاتب الرد أراد أن يقول إن الخزر كانوا على اتصال في ماضي الأيام ليس مع أمويي الأندلس فحسب، بل مع أمويي المشرق، ولاشك أنه كان هنالك سفير خزري في ركاب الفضل بن سهل، من المفترض في بغداد[4] ـ أثناء خلافة المأمون[5]، (813 ـ 833)، وفي ضوء هذه القضية من المحتمل وجود زيارات أخرى

---

(1) انظر الاقتباس من قسطنطين بروفي المقبل.

(2) De Admin. Imp, G. g. انظر أيضاً مينورسكي، حدود: 431 حاشية 3 حيث ذكر أن باحثاً روسياً اسمه لاشنكو أعطى 22 شرحاً مختلفاً لسامابتاس (من سلافي إلى اسكندنافي إلى هنغاري إلخ..) ورجح أصلها الخزري كما اقترح بروتزكوز، وعنده أن كييف وسامبات اسمان خزريان (انظر الموسوعة اليهودية، مادة تشاسون) وانظر:
(Kiev I, Sambatas, Dokladi Akad, S.S.S.R 1930)

(3) راجع مرقوارت: 198.

(4) الأصح مرو.

(5) الحصري ـ زهر الآداب: 1/ 254.

أبكر، ولم توصف العلاقات الخزرية مع مسلمي المشرق بشكل صحيح في كلمات كاتب الرد في قوله: «تبادل الرسائل والمؤثرات الحضارية»، ويبدو من الطبيعي الإلحاح على الجانب الإيجابي المفرح في رد مرسل إلى وزير أندلسي، وعلى أساس هذه الفقرة يبدو أو بروتوكوز Brutzkus كان محقاً في قوله: ملك الخزر أرشيفاً، كان بإمكانهم استخراج معلومات منه حول العلاقات بينهم وبين الأمويين في القرن الثامن[1]، ويبدو أن هذا الأرشيف نفسه هو الذي أشار إليه الرد في مكان آخر أثناء حديثه عن التوسع الخزري في القرن السابع، الأمر الذي تحدثت عنه المصادر الإغريقية، وذلك قوله: «لدي سجلات مدونة فيها أنه لما كان آبائي قلة، أعطاهم الله القدرة والقوة والشجاعة وقاموا بالحرب بعد الحرب ضد دول كثيرة، كانت أعظم وأقوى منهم، لكن بعون الرب، تمكنوا من إجلائهم وورثوا أراضيهم، وجعلوا بعضاً منهم يؤدون الجزية إليهم حتى هذا اليوم، وكانت الأرض التي أعيش فيها في الماضي ملكاً للـ «ونتر W-nnt-R، وقد جاء أجدادنا من الخزر وقاتلوهم إلخ. .[2]» وإنه لمن المهم التساؤل: إذا كان السجل معاصراً له، ففي أية لغة كتب أصلاً؟.

إننا على كل حال نبتعد عن مقصدنا الحالي الذي هو القيام بتقدير قيمة رسالة حسداي كمصدر تاريخي، بعد كل ما قيل يبدو أسلم محصلة هي القول: إن الرسالة قد أرسلت من قبل الوزير الأندلسي إلى مملكة الخزر، ويبدو أن تاريخ ذلك كان قبل سنة 961م، بعد انتهاء حكم عبد الرحمن الثالث، ولربما كان بعد سنة 954م، وهي السنة التي أرخ بها المقري للسفارة، هذا وإن الذين يرون في الرسالة أصداء لآمال يهودية ذات مضامين «مسائحية» لعلهم محقون[3]، لكن حسداي أراد معلومات أكبر إلى جانب التاريخ المحتمل لنهاية الدنيا، لكنه لم يحصل على كل ما أراده، فقد سألت الرسالة إلى أي سبط كان يوسف ينتمي، لن ليس هنالك جواب، ولعل سبب ذلك أنه لم يكن من أصل يهودي ولم

---

(1) الموسوعة اليهودية ـ مادة تشاسرن. وقد جعل يهودا هاليفي الملك الخزري يتحدث كما وأنه عارف بوثائق عمرها قرون، قوله: «وجدنا كتابات معلومة في مخطوطات، كتابها كتبوها منذ خمسمائة سنة مضت». (كوزاري: 12/ 1).

(2) انظر ما سلف الفصل 3.

(3) انظر ما سلف لاندو: Beitrage, Passim.

يكن له سبط ورأينا أيضاً سبباً للرأي القائل إن تهود الخزر لم يكن كاملاً حتى في القرن العاشر، حيث لم يأت رد من قبل يوسف على التساؤل عن مذهبه في ممارسة طقوس العبادة، وفيما إذا كانت الحرب تخرق السبت، ومن الواضح أن ملك الخزر لم يرغب في إعطاء تعداد قواته المسلحة، مع أنه قد طلب ذلك منه من قبل حسداي، وذلك ما لم يكن هنالك سقط كبير في نصي الرد، وهو أمر لا يمكن في الوقت الحاضر برهنته، المهم أنه هنالك فوارق واضحة بين أسئلة الرسالة والأجوبة الواردة في الرد، ولربما يمكن عدّ هذا بمثابة إشارة إلى أن الوثيقتين صحيحتان، كما هما وليستا عملاً أدبياً مخترعاً، ففي مواجهة الانتقادات التي وجهت ضد صحة رسالة حسداي، نجد هذه الجهود لم تستطع تقديم برهان مقنع، ولذلك نجد لزاماً علينا تقبلها كما هي، وحسبما رأينا في السير اللاتينية (أفضل نشرة لها في Mignespatrologia السلسلة الثانية المجلدة 137 . الفصل 121) أن جون كورز قد وجد حسداي (Hasdeu) يشغل منصباً معتمداً في بلاط عبد الرحمن الثالث ويباشر نوعاً من الأعمال نسبها إلى نفسه في الرسالة، وتمتن هذه الحقائق النتائج التي تم التوصل إليها.

ولكن ماذا عن رد يوسف؟ يبدأ هذا الرد بالإشارة إلى النقاط الرئيسة في رسالة حسداي ويعيد إجمال عدد من أسئلته، قد عبر يوسف عن استعداده للإجابة عليها بالتفصيل، وقام يوسف أولاً بتقديم رواية مختصرة حول تاريخ الخزر خلال حقبة الـ «ونتر» التي سلفت الإشارة إليها، ثم تابع يوسف روايته فعالج بطول مناسب تحول الخزر إلى اليهودية، تحت حكم الملك بولان Bulan، ويشكل هذا الجزء بيت القصيد في الرد، وقد قيل إنه في عهد واحد من أبناء بولان (حفيده؟) واسمه عوبيدا Obadiah كان هنالك حركة إصلاحية وجرى إدخال اليهودية (الحاخامية؟)، ثم تتبع يوسف مسألة انحداره من عوبيدا، وقدم وصفاً لبلاده وعاصمته، وأشار إلى سؤال حسداي حول نهاية الحياة، وجاء هذا الجواب بشكل غير ملتزم، وعبر أخيراً عن أمله في أن يأتي حسداي إلى مملكة الخزر.

ومن البديهي أن أصالة رسالة حسداي وصحتها لا تعني بالضرورة صحة الرد وأصالته، فقد تقبل جوست Jost منذ زمن بعيد الرسالة ووجد أن الرد يحوي مؤثرات عربية، وقد توصل إلى نتيجة مفادها أنه لابد وأنه قد صيغ في الأندلس من قبل يهودي كان

يتحدث بالعربية[1]، وقام منذ وقت قريب ستنشنيدر Stienschneder بالاعتراف بأصالة رسالة حسداي، ووصف الرد على أنه اختراع متأخر[2]، لكن ما هو الأساس الذي اعتمده لإصدار هذا الحكم؟ هذا ما لم يذكره، وأما موقف لاندو Landau فيلخص في أن الرسالة لابد وأنها أصيلة بسبب التشابه الشديد بين أسلوبها وأسلوب ما وصلنا من كتابات مناحيم ابن ساروق، الذي قام ـ كما هو واضح ـ بصياغتها للوزير، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه رأى أن الرد يمكن أن يكون أصيلاً، لكن هذا ليس واضحاً[3].

وهنالك مسألة عامة تحتاج إلى الأخذبعين التقدير هي أننا لا نملك رواية مستقلة (فيما عدا وثيقة كمبردج) تثبت أن يوسف كان شخصية تاريخية، ولا شك أن هذا يلزمنا بالتعامل مع الرد بشيء من التردد أعظم مما نبديه تجاه الرسالة، فالمصادر الإسلامية التي أتت على ذكر قادة الخزر لاتؤيد وجود ملك خزري حمل اسماً عبرياً، زد على هذا: ليس من الواضح فيما إذا كان يوسف خاقاناً أم بك، ذلك أن حسداي لم يكتف بمخاطبته في الرسالة باسم «قائد الحرب» بل من الواضح أن يوسف قد أشار إلى نفسه باسم «الملك القدير الذي لم يهزم له جيش قط إلخ . . .» وها هو يقول ثانية: «إنني أعيش عند مصب النهر (يعني أتل الفولغا) وأقوم بعون الرب بحراسة مصب النهر، ولا أوذي سفن الروس ولا أمنعها من متابعة سيرها بحراً ضد العرب . . . إنني أقاتل معهم إلخ . . .» ويبدو أن هذه اللغة لائقة بالبك، أكثر منها بالخاقان، ومع ذلك نجده يخبرنا أنه ينحدر من سلسلة طويلة من الحكام، وذلك في وقت لم يكن فيه منصب البك كما هو مرجح منصباً وراثياً، ففي واحد من

---

(1) Geschichte. برلين 1826: 6/ 365 ـ 366. كان هاركفي الذي أثبت كلمات عربية أخرى في النص الطويل من الرد (ميسف، ندهم: 1/ حاشية 10) محقاً حين لم يتوصل إلى محصلة أنه قد صنف في الأندلس.

(2) تاريخ الآداب اليهودية (1905): 19.

(3) الوضع الحالي ـ الفصل الثالث. ويعترض لاندو بشكل واضح على قول بولياك (التحول: فصل 3) أنه (أي لاندو) قد تقبل كل من الرسالة والرد على أنهما أصيلان، ولم يلق موقف لاندو من صحة الرد والرسالة رواجاً كبيراً، ولم يظهر فقط في كتاب «روسيا القديمة» بل في كتاب «بداية التاريخ الروسي» للسيدة شادوك.

أشكال النص، وهو نص شيفرها ـ عتيم العائد إلى يهوذا البرشلوني، نجد لقب قآآن أو خاقان مذكور بشكل واضح[1].

وفي جميع الأحوال لابد من القول إن يوسف كان هو الخاقان، ولنا أن نفترض أن خاقان الخزر، كان اسماً «ملكياً» عبرياً وذلك بالإضافة إلى اسمه التركي، ومن الممكن أن الخاقان قد كان طوال الوقت قائداً اسمياً للجيوش (راجع نص ابن فضلان حيث أعطانا معلومات تفيد أن الخاقان قد ملك من السلطة ما يكفي لتغيير القادة غير الناجحين، وتغيير البك نفسه) مع أنه لا ريب في أن قيادة العمليات كان في يدي البك، وذلك كما تخبرنا المصادر الإسلامية بالإجماع، هذا ونعلم مما جاء في هذه المصادر أن الخاقان كان يركب في بعض الأحيان مع القوات الخزرية، وذلك حتى في أيام الحرب، وبناء عليه عندما تحدث يوسف عن عيشه مع قادته، وقيامه بجولات خلال المقاطعات الخزرية، هو قد تصور الأمر أكثر من إجراءات رسمية موسمية، أضف إلى هذا أن الخاقان كان صاحب الشأن أثناء تغيير المخيم الشتوي إلى المخيم الربيعي، ثم المخيم الصيفي، ولعل هذه التحركات الهامة قد ربطت مع الأعياد اليهودية الكبرى[2].

وجرى ترتيب الأسباب الفعالة ضد أصالة الرد (وذلك بالإضافة إلى المؤثرات العربية) من قبل لاندو وهي:

1 ـ الهجوم العنيف على الإسلام الموجود داخل الرد غير محتمل في رسالة مرسلة إلى مسؤول كبير لدى حاكم إسلامي.

2 ـ انعدام اللون اليهودي واللون المحلي في وصف دولة الخزر.

3 ـ سقط كبير في الوصف الجغرافي لبلاد الخزر.

4 ـ الجدل غير المنطقي المستخدم في النقاش الديني التعسفي، كما جرى تدوينه في الرد[3]، ولابد لنا من القول قبل تفحص هذه النقاط إن نصي الرد يبقيان معاً أو يسقطان، ومع

---

(1) انظر ما سيأتي الفصلين: السابع والتاسع.

(2) في الرد (النص الطويل): «نخرج من شهر نيسان... أنا وضباطي وخدمي انطلقنا.. في نهاية شهر كسليف في أيام عيد الوقف عدنا إلى المدينة».

(3) الوضع الحالي ـ الفصل الثالث.

إمكانية أن النص الطويل يحوي إضافات ألحقت به فيما بعد جادل كوكوفتسوف Kokovtsov بحرارة في أن المدائح التي لها أرقام من الممكن أنها كانت كذلك[1]، ومن المؤكد أنه بشكل عام أقرب إلى الأصالة من النص القصير، والبرهان على هذا موجود في المحتويات، حيث لم يقم النص المختصر بعمل تجاوز به اختصار الطويل.

ففي حين نجد على سبيل المثال النص القصير يشير بكل بساطة إلى أن تسعاً من الدول الدافعة للجزية قائمة على الفولغا، وخمس عشرة نحو الجنوب، وثلاث عشرة في الغرب، يقوم النص الطويل بإعطاء أسماء هذه الدول في كل حالة من هذه الحالات.

ولقد سلف ولاحظنا وجود فقرة غير مفهومة في النص القصير، وأنها أصبحت واضحة بإضافة بعض الكلمات من النص الآخر، ونأخذ نموذجاً على ذلك أننا نقرأ ما يلي في النص المختصر: «فمنذ ذلك اليوم عندما تجمعت أمتنا تحت أجنحة رب الوجود، أخضع لنا جميع أعدائنا، وأذل جميع الأمم، والألسن من حولنا، فجميعهم يدفعون الجزية لي على أيدي ملوك: أدوم، واسماعيل» (يعني الأباطرة البيزنطيين والخلفاء)، وليس هنالك مصدر آخر قد أشار إلى هذا، وفي الحقيقة من غير الممكن أن نصدق أن الامبراطور البيزنطي والخليفة قد دفعا الجزية إلى الخزر كممثلين للأمم الأخرى، وذلك كما يشير المعنى الحرفي للنص.

ومقابل هذا نقرأ في النص الطويل: «منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه آباؤنا على هذه الديانة، أخضع رب إسرائيل جميع أعدائهم لهم، وأذل كل أمة ولسان من حولهم من ملوك أدوم، وملوك بني إسماعيل، جميعاً يدفعون الجزية لهم» وهذا أقل تناقضاً من النص القصير وأقل اعتراضات.

والقول إن الامبراطور والخليفة قد دفعا الجزية للخزر ليس جدياً، وهو نوع المبالغات الأدبية التي نشهدها في النص الطويل، ونحن نعرف أنه أيام ابن فضلان قد وعد بدفع مبلغ - وربما دفع - إلى البلغار[2]، وذلك من قبل الخليفة المقتدر، ومن المفترض أن هذا المبلغ قد جاز عبر حدود الخاقان دون معرفته ضد إرادته، وكان القصد منه بناء حصن لملك البلغار، ولاشك أن ذلك كان ضد رغبات الخاقان، ولربما جاءت مبالغ أخرى من بغداد، ومن

(1) انظر ما سلف - المدخل.

(2) ابن فضلان: 1/ 48.

بيزنطة، أيام إرسال البعثة المسيحية التبشيرية الهامة إلى بلاد الخزر في حوالي سنة 860م[1]، أو بعد النجاحات العسكرية الخزرية المشار إليها في وثيقة كمبردج.

وقد استخدم يوسف أسلوباً تبجح فيه كثيراً حول نفسه ومركزه في كل مكان، فكما سلف ورأينا، ذكر ببعض المناسبات التي وجد فيها جيرانه الأقوياء أنه من النافع إرسال بعض الأموال إلى مملكة الخزر، ولابد أنه حين وصف ذلك قد عدّه جزية، أو لعله كان يشير إلى الهدايا الثمينة مثل تلك التي اعتاد الأباطرة البيزنطيون إرسالها في بعض المواسم إلى دول شمالي بيزنطة، عاداً إياها جزية مدفوعة من قبل الإمبراطور، وفيما عدا ذلك ما زال هنالك بعض الأشياء الباقية في النص الطويل، لا نستطيع وضعها في سياق صحيح.

لقد كان أول ما ركز عليه لاندو واتخذه بعين التقدير، هو الوصف المعادي والخاطئ للإسلام الذي وضع على لسان المناقش المسيحي أثناء المناظرة الدينية قوله: ماذا! أيمكن مقارنة ديانة إسماعيل بديانة إسرائيل؟ إنهم ليس لديهم سبت ولا مواسم مقدسة ولا وصايا ولا شريعة، ويأكلون كل شيء مدنس إلخ... هذا ومن الصعب أن نرى أن هذه الكلمات لم يكن لها مكان في رسالة أصيلة بعثت إلى حسداي، فالرد قد كتب بالعبرية، وكان من المستبعد تعميمه في الأندلس حتى يسبب المضايقة لمتسلمه، ثم إن حسداي نفسه لم يكن مسلماً، ولاشك أنه لم تكن لديه مشاعر لطيفة خاصة تجاه ديانة سيده، ثم إن الإهانات هي في جميع الأحوال قد قدمت ليس بمثابة كلام قاله يوسف، بل على أساس أنها قيلت في مناظرة جرت منذ وقت بعيد قبل تحول أجداده إلى اليهودية.

أما بالنسبة للنقطة الثانية التي ذكرها لاندو، إن هنالك كمية كبيرة من اللون اليهودي، إذا كان المقصود بذلك الإشارة إلى المؤسسات الإسرائيلية المعهودة، فلقد كتب الرد بالعبرية، وبالعبرية تميز عن أية رسالة أخرى، وهذه نقطة هامة جداً سنعود إليها ويخبرنا الرد أنه بعد الهجوم على أردبيل (الذي وقع سنة 112هـ/ 730 حسب المصادر العربية)[2] أقيم هيكل بدائي حسب النمط التوراتي (فيه تابوه وشمعدان إلخ).

---

(1) انظر الفصل السابع.

(2) من أجل الحقبة فيما بين بولان وعوبيدا يمكن الافتراض أن القرائين سادوا في بلاد الخزر (حوالي 740 ـ 800)، ولكن من الممكن أن هذا مبكر جداً (فإن بن دافيد الذي يجري بالعادة الحديث عنه على أنه =

ومن المؤكد أننا نملك أقوى لون يهودي عندما يخبرنا الكاتب أنه بعد جيل أو جيلين من التحول إلى اليهودية وجدت حركة إصلاحية دينية بقيادة عوبيدا حيث بنيت الكنس والمدارس وأصبح الخزر معتادين على التوراة، المشنا، والتلمود وأدبياتهم، ولقد كان بإمكان يوسف تقديم لائحة بأسماء أجداده جميعاً وهم يحملون أسماء عبرية وذلك فيما عدا بولان، كما كانت له اتصالات باليهودي بن اليعازر، هذا من جهة وإذا كنا من جهة أخرى نلمس بعض الآثار غير اليهودية، فتلك متعلقة بالحياة نصف البدوية لشعب الخزر، ويتماشى هذا مع ما نقرأه في كل مكان ويمكن شرحه على ضوء الأصل التركي للخزر.

أما بالنسبة للون المحلي في الرد فإنه واضح على الأقل بقدر وضوحه في رسالة حسداي بالنسبة للأندلس، فقد لاحظنا قبل قليل الأثر نصف البدوي للخزر، أما ما قاله يوسف حول الدول التي كانت تدفع الجزية فقد جرى إيضاحه بشكل ممتاز من قبل الكتاب الروس[1]، وأكده الاصطخري الذي تحدث كما نقلنا من قبل أن «لهم وظائف على أهل المحال والنواحي من كل صنف».

وقد أكد الاصطخري بشكل مثير ما رواه يوسف عن هجرة جماعية للخزر من عاصمتهم في الربيع حين قال: «اعتدنا أن نخرج منذ شهر نيسان من المدينة، حيث يمضي كل إنسان إلى حقله وكرمه وفلاحته»، وتبعاً إلى كاسل Cassel[2] هنالك نقطة واحدة في الرد كافية في حد ذاتها للبرهنة على صحة الوثيقة كلها، وهي الإتيان (أثناء الحديث عن التحول إلى اليهودية) على ذكر «واحد كان قائدهم العام» أو «إن هنالك قائداً عاماً» إلى جانب ملك الخزر، فمن المؤكد أن الإشارة هنا إلى «بك» مملكة الخزر، ومن النقاط الأخرى التي يمكن ملاحظتها تصريح يوسف أنه يقوم بحراسة مصب الفولغا ويتولى منع سفن

= مؤسس حركة القرائين من المفترض أنه نشط في حوالي سنة 760) بالنسبة للحقبة نفسها افترض بولياك وجود «ديانة إبراهيمية» متميزةعن اليهودية (التحول الفصول 3 ـ 4 خزاريا: 141 ـ 143) لقد ورد هذا التعبير في الرد بدون أية أهمية خاصة، بل كعبارة تدل على ديانة بني إسرائيل.

(1) انظر الفصل السابع.

(2) نقلاً عن كوكوفتسوف ـ المصدر السالف: 78، الحاشية 2.

الروس من النزول إلى بحر قزوين، وتقسيم عاصمة الخزر إلى ثلاثة أقسام مضاعفة (حسبت مقاييسها لتطابق عملية تحويل فلكية)[1].

ومن جانب ثالث أشار لاندو إلى سقط في الوصف الجغرافي لبلاد الخزر، وقد ألح بولياك على هذه النقطة وحاجج على أن المعلومات الجغرافية الموجودة في الرد هي من النوع الذي يمكن لرحالة أن يحصله، بعد أن يمضي من القسطنطينية إلى عاصمة الخزر، وذلك بعد أن يكون طريقه بحراً عبر القرم، وبراً من تمتارخا Tamatarkha (تمان) واقترح أن معلومات مثل هذا الرحالة قد استخدمت من قبل الذي تولى صياغة الرد[2]، وبدا غياب أي تحديد للحدود الخزرية له أهمية خاصة بالنسبة لبولياك، إذ أن واحد من طلبات حسداي في رسالته تزويده بالمعلومات عن المدن «القريبة من (مملكة الخزر) باتجاه خراسان، وبرذعة، وباب الأبواب»[3] ولعل إغفال ذلك في الرد يمكن رده إلى أسباب أخرى، ذلك أنه لم يكن باتجاه خراسان مدن هامة، فما الذي يهم مراسل في الأندلس بديار آبسكون[4]، ومنقشلغ[5]، على الشاطئ الشرقي لبحر قزوين التي هي باستثناء مراكز صيد الأسماك في دهستانان سير[6]، إلى الشمال من آبسكون، كانت كما يبدو المكان الوحيد إلى الشرق من الفولغا كان فيه سكن دائم؟ وكانت الثغور الشرقية لبلاد الخزر إما صحراء أو في أحسن الأحوال أراض رعوية فقيرة محاصرة من قبل رجال قبائل نصف معادين، كانوا ما يزالون متوحشين أكثر من الخزر أنفسهم، وكان أهم من ذكر مثل هذه الأسماء، إيضاح أن بلاد الخزر تمتد «نحو قزوين حتى

---

(1) انظر المصدر نفسه: 110 ـ الحاشية 38.

(2) التحول ـ الفصل 53 خزرايا: 21.

(3) يبدو أن بولياك يفترض أن رسالة حسداي صحيحة.

(4) من سفن آبسكون التي أبحرت عبر باب الأبواب وباتجاه الشمال الغربي إلى مصب الفولغا (الاصطخري: 227، وانظر أيضاً 213) وذكر المسعودي أنه أبحر من آبسكون إلى طبرستان (مروج: 1/ 274).

(5) وقعت منقيش لاغ على الحدود الخزرية باتجاه جرجان، وذلك تبعاً للمقدسي: 355 (عنده بنقشله) وقال بارثولد (الموسوعة الإسلامية ـ مادة منقيش لاك) إنها سياه ـ كوه إلى الشمال من آبسكون (الاصطخري: 190 ـ 219).

(6) الاصطخري: 219. مينورسكي (حدود: 193) حيث قرأها دهستانان ـ سر.

جرجان (اقرأ كركانج؟) وذلك حسبما جاء بالرد (النص الطويل)، وذلك بالتوافق مع قدامة الجغرافي العربي[1]، وهناك تواؤم أوسع يمكن أن نجده في رواية ابن فضلان التي نرى من خلالها أن الحدود الهامة التي قامت بين البداة الغُزّ، الذين من المحتمل أنهم اعترفوا بالسيادة الخزرية، وبين الأراضي الإسلامية تمثلت بنهر جيجون.

ويتساءل بولياك: لكن ليس هنالك معلومات عن خوارزم في ضوء العلاقات التجارية التي كانت قائمة بينها وبين مملكة الخزر؟ بكل بساطة، هذا ما لا نعرفه[2].

وأشار آخر اعتراض في لائحة اعتراضات لاندو على الرد، إلى النقاش غير السليم الذي استخدمه المتناقشون أثناء المناظرة الدينية، كما جرى تدوينها في الرد، وليس هنالك من سبب مؤكد يبين لماذا توجب أن يقدم الملك رواية صحيحة عن الآراء التي لم يشارك بها، وذلك أثناء وصفه لمناظرة دينية عقدت قبل أيامه بوقت مديد، ومن البديهي أن يكون كاتب «رد يوسف» المخترع قد قام بوضع ملاحظات مفهومة في أفواه المتناظرين، فكلمات القاضي التي قال فيها إن المسيحيين «يسجدون لأشياء من صنع أيديهم» فيها إشارة واضحة إلى عبادة التماثيل، وهذا الشاهد صحيح، فعبادة التماثيل كانت موضع ممارسة في القرن السابع وبداية الثامن.

أما بالنسبة لتاريخ التحول المعطى في النص المطول من الرد، فقد جاء هناك أن الحادثة قد وقعت منذ حوالي «340 سنة مضت» ولابد أن الرد - إذا كان أصيلاً - قد اتبع ما جاء في رسالة حسداي بحقبة قصيرة إلى حد ما، حيث ذكر فيها عبد الرحمن الناصر هو صاحب الأندلس وأنه كان ما يزال حياً، ولابد على هذا أنه قد كتب في سنة 961 أو 962، ولدى

---

(1) المكتبة الجغرافية العربية: 6/ 259.

(2) قال. ف. ألتمان (الحضارة الخوارزمية القديمة في ضوء الاكتشافات الأثرية الأخيرة (1937 - 1945) دورية معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية: 67/ 2 (19: 7) هنالك أسباب للاعتقاد أن اليهودية قد جلبت إلى بلاد الخزر في القرن الثامن عبر خوارزم، وأن النقود المكتشفة من قبل حملة سيرجي تولستوف، تفيد بوجود وحدة سياسية بين بلاد الخزر وخوارزم في منتصف القرن الثامن، إنني لا أعرف الأساس الذي قامت عليه هذه الأقوال ذلك أن مقال تولستوف «في صحارى خوارزم» (المجلة الآسيوية: 4 (1944) (408 - 414) لا يلقي الضوء على النقاط التي ذكرها التمان.

تفحصنا الرد واعتماده، فإن أدنى تاريخ يمكن إعطاؤه للتحول هو سنة 621 أو 622[1]، وهنا من البديهي أنه قبل السنة العاشرة للهجرة لم يكن هنالك قاض مسلم في بلاد الخزر أو أي مكان آخر، وقصة المناظرة كما هي معروضة في الرد تذكر قصة مشاركة القاضي ليس عرضياً بل من حيث الأساس، ولذلك لعله علينا أن نتفق مع لاندو على أن الرقم قد جرت إضافته مؤخراً من قبل أحد النساخ[2].

وقد بات علينا استخراج بعض البينات الإيجابية حول هذه المسألة، فأنا أعتقد أن التجارب البسيطة التالية لم تطبق بعد على المراسلات الخزرية[3]، ونجد في النص الطويل من الرد أن البناء الكلاسيكي لعبارة Waw ينقلب مع الماضي الناقص للتعبير عن وقوع الفعل الماضي، لكن ليس لأكثر من مرة أو مرتين مقابل مائة حالة حيث يأتي التعبير عن الماضي التام وwaw البسيطة، هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد في رسالة حسداي الفعل الماضي يجري عرضه حوالي خمسين مرة بـ Waw مقلوبة وناقصة، وأربع عشرة مرة فقط بـ Waw بسيطة تامة، وهذا تباين واضح في الأسلوب، وبناء عليه فإن الرسالة قد كتبت بيد مختلفة، ويمكننا أن نتابع فنحصل على بعض المقارنات في النص المختصر من الرد، الذي يحمل آثاراً واضحة بأنه قد جرى التلاعب فيه، وبدل من خلال النص الطويل، ونجد في النص القصير المبني مع Waw المقلوبة قد جرى تقديمه عندما كان المحرر يثبت كلمات النص الطويل الأمر الذي قام به مراراً، وفي بعض الأحيان في أماكن أخرى، ومن الواضح تمام الوضوح عملية إحلال الماضي الناقص Waw المقلوبة محل Waw مع البسيطة والتام، بشكل يسمح لنا التأكيد بشكل قاطع، أكثر مما سمح كوكوفتسوف به لنفسه، على أن

---

(1) استعان هاركفي بما ورد عند ايزدور الاشبيلي ليؤيد ما ذهب إليه أن تاريخ التحول كان سنة 620، فالتاريخ الذي أعطاه ايزدور هو: 570 ـ 636، لكن المصادر الأخرى تؤيد التاريخ المتأخر وتثبت أن الخزر كانوا مع نهاية القرن السابع ما يزالون على الوثنية. انظر الفصل الرابع (ألب ـ الوتفير) والفصل السابع (تودون الكسيرسوني).

(2) ربما من خلال خطأ جاء الرقم 300 في الأسفل عوضاً عن 240. انظر ما نقله بري في تاريخ الامبراطورية الرومانية المبكر: 408 ـ الحاشية 1.

(3) جرى اقتراح هذا من خلال حديث جرى بيني وبين الأستاذ بومان عندما كنا في غلاسكو.

النص الطويل أكثر أصالة[1]، ولكن توزيع المبنيين في النص القصير والرسالة مختلف تماماً ففي حين تقع الـ Waw البسيطة مع التام عددها ليس أقل من خمسين مرة، ويمكن ترتيب هذه النتائج كما يلي:

Waw بسيطة مع التام		Waw مقلوبة مع الناقص
14	48	الرسالة
50	37	(النص القصير) الرد
95	1	(النص الطويل) الرد

وبناء عليه يمكننا القول بكل تأكيد إن الرسالة لم يجر تحريرها من قبل اليد نفسها مثل النص القصير، كما يظن، ولهذا نحن مخولون بمقارنتها مباشرة مع النص الطويل، وفي ضوء الفوارق المدهشة في الاستخدامات يمكننا تأكيد أن التأليف لم يكن عمل شخص واحد.

أما بالنسبة للتساؤل يمكن استخلاص محصلات أوسع من هذه النتيجة فينبغي الوصول إليها بتقيد، ويمكن التصريح بشكل عام إنه ما من شيء حاسم قد أثير ضد صحة محتويات رد يوسف في شكلها الأصيل، وهو النص الطويل، وتؤيد الفوارق في الأسلوب صحته، وهي من النوع الذي يتوقع صدوره عن أجزاء العالم اليهودي المتباعدة، حيث وجد مستوى من الثقافة لم يكن أبداً متماثلاً.

ولعله من المسموح هنا تدوين انطباع عن شيء مفيد، وهو أن لغة الرد بشكل عام أقل تصنعاً وأقرب إلى السذاجة[2] من لغة الرسالة، حيث لا يوجد في الرد ما يماثل أبيات التفخيم التي بدأ فيها الوزير الأندلسي، أو بالحري كاتبه، بمخاطبة يوسف، ويمكن أن نلفت الانتباه إلى شيء آخر أكثر تحديداً من الانطباعات، فقد لفظت الأشكال المختلفة لكلمة قاضي العربية في النص الطويل من الرد «بالدال»، ومعها أداة التعريف العبرية: قادي، ها ـ قادي.

ونجد في النص المختصر العكس، وذلك تحت التأثير العربي قد لفظت «بالضاد» وأرفقت بأداة التعريف العربية: قاضي، القاضي، وأكثر من هذا كله إثارة هو أننا نجد في

---

(1) انظر ما سلف.

(2) مثل ذلك لاندو «الوضع الحالي».

رسالة حسداي عبارة «خزر» تتكرر بشكلها العربي «الخزر»، بينما ترد في الرد (بنصيه الطويل والقصير) على شكل: «كزر» و«كزريم» (بدون أداة التعريف العربية)، وورد في الرد اسم ممر داريل على شكل «دار ـ آلان»، وهي التسمية الإيرانية القديمة، وذلك في حين ورد اسم ممر دربند بشكله العربي «باب الأبواب»[1]، وهذا تكرار يدل على جهل معنى الاسم العربي، وتبدو هذه الأمور بمثابة أدلة صحيحة تشير إلى أن الرد قد كتب بالأصل في وسط كان لا يتحدث بالعربية.

وقد بات من الممكن القول: إن نظرية بولياك حول المراسلات الخزرية في أنها كانت رواية رائجة عن بلاد الخزر وضعت على شكل رسائل، ولهذا اقترح أنها لا تغطي الحقائق، هذه النظرية يمكن طيها الآن، ذلك أن الفوارق بين الرسالة والرد أكبر مما هو متوقع، إنما لو أن الرسالة والرد لم يكونا بأيد مختلفة، كما يظهر من شكلهما، فقد جرت محاولة لإعطاء هذا الانطباع، ولا يمكننا تجنب الوصول إلى هذه المحصلة عن طريق طرح فكرة وجود تحرير مبكرة للوثائق، الأمر الذي لا يوجد ما يبرهن على صحته، فمن هو الذي كان قد اخترعهما آنذاك، وذلك في الحقبة القائمة فيما بين 961 و1105م، ولماذا اخترعهما؟ هذا سؤال لا يمكن الإجابة عليه، ولهذا إنه من الصعب عدم الإقرار بأن رد يوسف لم يكن بالجملة أصيلاً.

وهناك دليل يشير إلى صحة مراسلات الخزر، ورد عن طريق إشارة جاءت في مخطوطة ابن حوقل حيث ذكر حسداي بن شبروت، وتاريخ المخطوطة هو 1086م[2] وكان مما قاله ابن حوقل: ويرى حسداي بن اسحق أن هذه الجبال العظيمة (القوقاز) متصلة بجبال أرمينية، وتتوغل في بلاد الروم وتمتد إلى خزران وجبال أرمينية، وكان حسداي عليماً بهذه الأطراف لأنه زارها واجتمع بملوكها وأعيانها[3]، ومصدر هذه الكلمات

---

(1) شا ـ أو باب الأبواب (النص الطويل).

(2) ظهرت هذه الإشارة على خريطة في مخطوطة سراي 3346 تاريخها 479/ 1086 ـ استخدمها كريمر كأساس للطبعة الثانية من ابن حوقل (انظر: 193) راجع أيضاً زكي وليدي (Volkerschaften) 50 ـ الحاشية 1.

(3) لم أقف على هذا الكلام في المطبوع من كتاب صورة الأرض.

وصاحبها مجهولان معاً، وكان حسداي في رسالته قد عبر عن رغبته بزيارة مملكة الخزر، وفي الرد رحب يوسف بالفكرة، ومهما يكن الحال، يبدو أن هذه البينة المبكرة غير المتوقعة، هي مستقلة ـ وذلك في حدود ما هو معروف ـ ولا علاقة لها بالمواد العبرية المتعلقة باهتمام رجال الدولة اليهود في الأندلس بمسائل مملكة الخزر.

وتحمل رواية تحول الخزر الواردة في رد يوسف شبهاً عاماً للرواية الواردة في كتاب كوسري (كوزاري) ليهودا هاليفي، ففي الروايتين رأى ملك الخزر فيما يراه النائم ملاكاً يتكلم إليه، وتجد إلى جانب الملك القائد العام (البك؟) يرد ذكره في الروايتين، وفيهما أيضاً ورد الحديث عن إقامة «هيكل» بدائي (وقد دعي في الرد أوهل Ohel، وفي كوسري مشكان).

والحدث الرئيسي في الروايتين هو النقاش الديني[1]، وهناك فوارق أيضاً، ففي كوسري لم يرد اسم الملك، بينما اسمه في الرد بولان، وتبعاً للرد قام الملك قبل المنام بطرد «السحرة والوثنيين» (الشامانيين) من أراضيه، وكان حسبما جاء في كوسري متعلقاً في هذا الوقت بديانته (الشامانية) بشكل كبير.

وهناك خلاف في مجرى النقاش الديني في الروايتين، لاسيما في إغفال كوسري لذكر قيام نقاش عام انتهت بموجبه ـ حسبما جاء في الرد ـ المناظرة، وثانية لا يتفق كوسري مع الرد في جعل إقامة الهيكل البدائي يتلو المناظرة، زد على هذا ليس لدى هاليفي (ربما

(1) على ضوء اقتراح الربط بين الخزر والايغور (الفصل الثاني) إن الرواية الواردة عند الجويني (تحقيق ميرزا محمد ـ سلسلة ذكرى جب: 1/ 43) عن تحول الايغور من الشامانية إلى ديانة أخرى، هامة، إن التشابه بينها وبين ما نقرأه عن تحول الخزر من الشامانية إلى اليهودية مدهش، فقد جاء في رواية الجويني أن سبب التحول هو حلم رآه الحاكم بوق ـ خان، وقد ظهر منامه لوزيره أيضاً، وقد تبع ذلك مناظرة دينية اجتمع فيها ممثلوا الديانة القديمة مع ممثلي الديانة الجديدة للنقاش، وقد انتصر ممثلوا الديانة الجديدة للايغور، وقد أظهر مرقوارت أن أساس الرواية هو التحول التاريخي للايغور إلى المانشينية في ظل حكم بوق ـ خاقان بعد سنة 762 بمدة وجيزة وأن الجويني حصل ـ كما يفترض ـ على معلوماته من نقش قرا ـ بالغسون ذي اللغات الثلاث والذي روى خبر التحول، وبناء على هذا، ليس هنالك ـ على الرغم من التشابه الشديد ـ أي رواية قد نقلت عن أخرى، وعلينا أن نعترف أن الرواية ـ لدى الجويني ـ تشير إلى حادثة منفصلة متميزة، وأن التشابه بينهما جاء عن طريق الصدفة، أو لوجود تصور مسبق وموحد في ذهن الذين تولوا رواية الحادثتين.

بسبب خطة كوسري) ما يقوله حول الإصلاح الديني الـذي تم ـ تبعاً للرد ـ فيما بعد تحت حكم الملك عوبيديا، وفي ضوء الفوارق لا يمكننا التعجل بالقول إن هاليفي لم يكن يعرف الرد، بل الاحتمالات كلها تؤيد أنه عرفه واستخدمه وانتقى منه ما واءمه، ذلك أنه من المؤكد أن كلاً من الرد وكوسري يقدمان الشكل ذاته من الرواية.

وتقدم وثيقة كمبردج رواية مختلفة تماماً حول تحول الخزر، ودعيت هذه الوثيقة بهذا الاسم، نسبة إلى مكان حفظها الحالي[1]، وهي قطعة تحتوي على أقل من مئة سطر كتب بالعبرية، لعل تاريخها يعود إلى القرن الثاني عشر، وهي تعود إلى مواد جنيزا القاهرة، وقد نشرت أولاً من قبل ششتر Schechter[2] في سنة 1912.

ومن الواضح أن الوثيقة جزء من رسالة من شخص ما، قد تحدث فيها عن يوسف ملك الخزر، بمثابة كونه معاصراً لشخص آخر غير معروف، مثله مثل يوسف أشار الكاتب إليه باسم «مولاي»، وقد قدم رسوله إلى القسطنطينية بحراً، ومن الطبيعي أن نعتقد أن هذا الشخص هو حسداي بن شبروت، وفي الوقت الذي يتحدث فيه الكاتب عن بلاد الخزر وملكها ويشير إليها باسم «بلادنا»، ويشير إلى يوسف باسم «مولاي»، فإن هذا يدفع إلى الاعتقاد أنه يهودياً خزرياً، ولكن العلاقة الممكنة بين الوثيقة والمراسلات الخزرية غير واضحة، وعدّ كوكوفتسوف الوثيقة كبديل رسمي لرسالة حسداي، ووجد أن الأحوال مريبة[3]، وإن الصمت الطبيعي القائم بين جزئي المراسلات ووثيقة كمبردج مفيد بشكل خاص.

ويبدو أن الوثيقة كانت على بينة أن حسداي قد بعث برسل إلى القسطنطينية، لكنها لم تعرف شيئاً عن الرسالة أو الرد، وبناء عليه يمكننا أن نفترض أنها كتبت قبل المراسلات، وأن الرسل هما اسحاق بن ناثان وجماعته المذكورين في رسالة حسداي، لكن لماذا على هذا لم يشر يوسف في رده إلى اتصالات سالفة لحسداي من الخزر؟ ومثل هذا يمكننا أن نتوقع أن يشير حسداي إلى الوثيقة لو أنه تسلمها، ولو أن الوثيقة جاءت بعد المراسلات يمكننا أن نتوقع إشارتها إما إلى الرسالة أو إلى الرد، أو إليهما معاً.

---

(1) ت. س ـ لون 38 في مكتبة جامعة كمبردج.

(2) المجلة الربعية اليهودية: 3 (1912 ـ 1913) 181.

(3) راجع المدخل.

ويمكن التغلب على هذه الاشكالات عن طريق الافتراض أن الوثيقة لم ترسل من مملكة الخزر، بل من القسطنطينية[1]، ربما عندما وجد إسحاق بن ناثان مبعوث حسداي الشخصي نفسه غير قادر على متابعة السير، كما أوضح في الرسالة، فتخلى عن عزمه بالسفر إلى بلاد الخزر وعاد إلى قرطبة، وهذا أمر شديد الاحتمال، لو أمكن الاتفاق مع دوبنوف Dubnov[2]، على أن يهودا البرشلوني قد ذكر وثيقة كمبردج كما ذكر مراسلات الخزر في النص التالي الموجود في كتاب سفرها ـ عتيم، الذي سلفت الإشارة إليه حيث يقول:

«لقد وجدنا نسخة من رسالة أخرى كتبها يهودي بلغته في القسطنطينية من ملوك [كغا] القسطنطينية، وقد أتت على ذكر حروب وقعت بين الملك هرون وملوك القسطنطينية، وحروب أخرى بين ملوك أبناء الأمم والملك يوسف بن الملك هرون، وذكرت أيضاً أن الخزر قد أصبحوا مهتدين، وصار لديهم ملوك مهتدون، لقد سمعنا أن الروايات حول هذا كله موجودة في كتب العرب [وأن هذا قد أودع في مصنفاتهم]».

ولقد حوجج أن لغة يهودي ما في القسطنطينية ينبغي أن تكون الإغريقية، وليست العبرية[3].

زد على هذا أن وثيقة كمبردج قد قدمت ملك الخزر بمثابة يهودي منذ البداية، أنه قد تحول إلى اليهودية، ولا يمكن أن يكون الشيء هو ذاته كما رأى الحاخام يهوذا[4]، لكن هذه انتقادات صغيرة، وبناء عليه لربما كانت تحديدات دوبنوف صحيحة، ومن المؤكد أن وثيقة كمبردج تتحدث عن تحول الخزر، وتقدم كمية كبيرة من المعلومات حول حروب البيزنطيين، وآخرين، ضد الخزر في أيام يوسف وسلفه المباشر، وإذا كانت الوثيقة قد كتبت في القسطنطينية فمن المتصور أنه لا حسداي ولا يوسف ينبغي أن يذكراها (من المفترض أن حسداي قد تسلمها عندما كتب رسالته).

ولكن هذا لا يحل المشاكل الأخرى التي تعرضها وثيقة كمبردج، فإذا كانت رواية التحول الواردة في الرد معتمدة ـ وهكذا ينبغي أن تكون ـ ما الذي يمكننا قوله حول النص

---

(1) مان ـ نصوص ودراسات: 1/ 8/ حاشية 11.

(2) Weltgeschiche des judischen volkes, iv, 481.

(3) مان ـ المصدر نفسه.

(4) بولياك ـ التحول فصل 3.

البديل المقدم في الوثيقة حول هذا التحول؟ ولقد قيل لنا هنا إن يهوداً وصلوا إلى بلاد الخزر منذ تاريخ مبكر - من أرمينية كما يبدو - وامتزجوا بالسكان المحليين، ولم يكن للخزر في هذه الآونة ملوك لكنهم كانوا في أوقات الحرب يأتمرون بإمرة قادة يختارونهم.

وحدث في إحدى المناسبات أن أصبح واحداً من اليهود (لم يذكر اسمه) قائداً عاماً، وقد وقع فيما بعد تحت التأثير المباشر للديانة اليهودية، ووصلت أخبار هذا إلى ملوك المقدونيين (البيزنطيين) والعرب، وجرى إرسال الرسل للتباحث معه، والاستفسار منه، وللضغط على بقية الرؤساء الذين لم يكونوا قد تحولوا بعد، وجرى اتفاق تقرر بموجبه إجراء نقاش ديني.

وعندما التقى العلماء من الديانات الثلاث، وتناقشوا دون التوصل إلى نتيجة مرضية، أوصى زعماء الخزر باستخراج بعض «كتب شريعة موسى» من داخل «كهف في وادي تيزول Tisul» والشروع بشرحها من قبل اليهود، وتم تنفيذ ذلك بالتمام، وإثر هذا قام يهود بلاد الخزر فقرروا جميعاً نبذ خلافاتهم، وحملوا بقية الناس على اعتناق اليهودية، وشرع يهود من «بغداد وخراسان وبلاد الروم» بالقدوم إلى بلاد الخزر، وجرى تأسيس الخاقانية، وجرى تغيير اسم قائد اليهود (الذي لا نعرفه) إلى سبريل Sabriel، وقد أصبح هذا أول ملوك الخزر.

وجرى في هذه الرواية عرض التغيير الديني في ظل سبريل بمثابة إصلاح ديني، تم من خلال بعض اليهود الذين كانوا يعيشون في بلاد الخزر منذ زمن طويل، ومن خلال سبريل وحميه وزوجته ساره، وهناك أساس قوي بالنسبة لاقتراحات ششتر في أن قصة التحول في وثيقة كمبردج هي توسع تفصيلي لما نقرؤه في الرد حول النشاط الديني في ظل حكم، عوبيدا الذي كان من سلالة بولان.

ويرى ششتر أن اسم سبريل الذي هو غير معروف في أي مصدر آخر، يمكن أن يكون مصحف عن اسم «عبديل» الذي هو صيغة بديلة لـ «عوبيديا» لها المعنى نفسه، (عبدايل أو عبديهوه)، لكن لا يمكن السماح لمثل هذا الاقتراح غير المعقول، فنحن لا نستطيع أن نفترض أن الجزء الأول من الوثيقة - وهو بحكم المفقود - قد حوى رواية حول تحول مبكر، وفي أن نفترض مع ششتر أن سبريل هو عوبيديا يعني إما أن النقاش في ظل بولان - الذي لا تقول الوثيقة شيئاً

عنه، لسبب نجهله ـ قد تكرر فيما بعد في ظل عوبيديا، أو أن الرواية عن نشاط بولان وخلفائه حتى عوبيديا الوارد ذكرها في الرد هي مخترعة، وكلا الافتراضين ضعيفان وغير مقبولين، وبناء عليه علينا أن نفترض أن سبريل هو بولان يحمل اسماً عبرياً.

ولعل أعظم النقاط أهمية في رواية التحول الواردة في وثيقة كمبردج هي ما قالته عن قيام تغيير في نظام الحكم رافق ذلك التحول، ولم يتعد هذا إيجاد نظام ملكي مزدوج، فلقد ذكر بوضوح أن نظام الخاقانية قد ظهر الآن، فقد حدث بعد التحول «أن عين سكان البلاد رجلاً حكيماً قاضياً عليهم، وقد دعوه بلغة بلاد الخزر الخاقان، وبناء عليه فإن القضاة الذين قاموا من بعده حمل كل منهم اسم خاقان حتى هذا اليوم» وتستطرد الوثيقة فتقول: «أما بالنسبة للقائد العام لبلاد الخزر فقد حولوا اسمه إلى سبريل وجعلوه ملكاً عليهم» وكما قال ششتر من الواضح أن هذه إشارة إلى منصب الـ «بك»[1].

ويبدو أن وجود ملك اسمي «باسم الخاقان» يعود ظهوره إلى حقبة متأخرة، ويوحي في جميع الأحوال إخضاع أسرة حاكمة من قبل أسرة أخرى، وهذا ما يراه المسعودي[2]، ومهما يكن الحال إن حدوث هذا بين الخزر، مرتبط بسماتهم البدوية الماضية، أكثر من ارتباطه بالتحول إلى اليهودية.

وفي ضوء الأوضاع المتأخرة من المتصور أن الخاقان يمثل الملوك المزاحين من قبل المشهورين الذين تمكن قائدهم من جعل نفسه من نوع «حجاب القصر» لدى أسرة حاكمة قديمة[3]، لكن هذا ما لا تقوله الوثيقة، حيث أن القائد العام اليهودي لم يزح الخاقان في سبيل حيازة السلطة «كبك أول» لبلاد الخزر، ذلك أنه لم يكن هناك خانات، وقد وجدوا فيما بعد حسبما جاء في هذه الوثيقة، وهذا من الواضح أنه خطأ، فمما لا شك فيه وجود خانات لدى الخزر منذ النصف الأول للقرن الثامن، وعلى سبيل المثال التقى جستنيان

---

(1) المصدر نفسه: 189.

(2) انظر ملاحظاته حيث نقلت في الفصل السابع المقبل.

(3) لعل رأي الفولضي في أن الملكية المزدوجة قد جاءت بالأصل من نظام استقلال القيادة في ميمنة وميسرة الحشد ـ انظر مقالة «الملكية المزدوجة عند الأتراك» (المؤتمر الثاني للتاريخ التركي ـ استانبول 1937).

الثاني بواحد منهم[1]، واحتمال الشك الوحيد الممكن يدور حول وجود منصب الـ «بك» في ذلك الحين، مع أن وجوده شبه مؤكد تقريباً.

وعلى كل حال تقول وثيقة كمبردج إن الخزر قد عينوا بعد التحول خاقاناً كقاض خاضع كما يبدو لسبريل، الذي أصبح ملكاً، ويناقض هذه العلاقات التاريخية، ولا يمكن قبوله كما هو[2]، لكن هنالك أكثر من هذا، فتبعاً للوثيقة كان أول خاقان واحداً من الرجال الحكماء، ومن المفترض أن المعني بذلك «حكماء بني إسرائيل» الذين جاء ذكرهم من قبل.

---

(1) انظر الفصل السابع.

(2) تبعاً لرد يوسف عادت الخاقانية بتاريخها إلى أصل الأمة «يجلس الابن على عرش أبيه، هذه هي عادتنا وعادة آبائنا منذ وجدوا على الأرض»، وبعد هذا يمكننا أن نقف عند ما قاله زكي وليدي (ابن فضلان: 270، 174) إن خاقانية الخزر تعود إلى أسرة حاكمة قديمة جداً بين الأتراك مدعوة في المصادر الصينية أسينا (أخينا ـ أشهينا ـ أسينا) وقد نبع الاسم من اسم جد كبير، (راجع ـ سانت جوليان ـ المجلة الآسيوية: 4/ 3 ـ 1864، شافانس ـ الوثائق). وتعود هذه الأسرة بالأصل إلى هيونغ ـ نو (باركر ـ ألف سنة: 129)، وغدت المجموعة الحاكمة لأول امبراطورية تركية (تو ـ كوه، كوك ـ ترك)، وقدمت الخاقانية للأتراك الغربيين والشرقيين (باركو ـ المصدر نفسه ـ مرقوارت: 46) ووجد زكي وليدي أن القرا ـ خانيه (الايلك ـ خانيه) وأسرة بورشغين قايات، التي يعود إليها جنكيز خان، كانت من فروع أسرة أسينا في الحقبة المتأخرة، وكان المنطلق الأساسي لهذا الرأي هو أن الخاقانية الخزرية كانت فرعاً من فروع الأسرة نفسها في نص ورد في حدود العالم: 50، فتبعاً له كان ملك (خاقان) الخزر «واحداً من أبناء أنسا» وتفحص مينورسكي هذا الاسم الغريب وقرأه زكي وليدي أسنا ـ أسينا. واقتراح القراءة الجديدة جذاب جداً، ولا يعارضها ورود أشكال وصيغ مشابهة (ايشا ـ أبشاد) عند ابن رستة والكرديزي، حيث أطلقت على البك ـ ملك الخزر الثاني، ولقد وجدنا لهذه الصيغ شروحاً من قبل (الفصل الخامس)، ويرى زكي وليدي الآن أنه من المؤكد أن البيت الحاكم بين الخزر كان فرعاً من «كوك ـ ترك»، ولقد وجد مع أسرة أسينا في بلاد الخزر مجموعات عرقية أخرى في آسيا الوسطى كانوا دائماً وثيقي الصلة بهم بما في ذلك ـ بشكل مشكوك فيه ـ الايغور (المصدر نفسه: 270 ـ 271).

وكان هذا بالطبع خط التفكير الذي اتبع في الفصل الثاني، وإنه لمن المدهش أنه تبعاً لابن العبري (المؤرخ السرياني ـ تحقيق بدج: 232 من الترجمة) كانت زوجة ملك شاه السلطان السلجوقي ابنة «طفراغ ملك الخزر»، والواضح أن طفراغ هو طمغاج بن بغرا، الإيلك خان (تاريخ الكرديزي: 444)، علماً أنه ليس من غير الممكن أن يكون الايلك من أصل ايغوري (انظر بارثولد ـ المسيحية في وسط آسيا 1901: 47...)، وعلى هذا لا يمكن القول إن هؤلاء كانوا من الخزر، والسؤال هنا هو هل كان ابن العبري على معرفة بوجود العلاقة عبر أسينا مع الخزر. وسلف لمرقوارت أن قال إن أسينا قد قدمت خاقانية الخزر (47).

ولاشك أن قبول وصول حاخام يهودي إلى عرش خاقانية الخزر هو خارج نطاق الممكن، ومن الممكن أن قضاة من اليهود قد جرى تنصيبهم بعد التحول[1]، لكن بالنسبة لحدوث تغيير في شكل السلطة في ذلك الوقت على المستوى الذي أشير إليه، أمر لا شك فيه، فالوثيقة تقدم قصة بولان من زاوية أخرى وتحت اسم عبري، والقول إنه من أصل يهودي يمكن أن يكون صحيحاً، لكن المقبول أكثر أنه كان يعود إلى أسرة تركية، صدر عنها جميع خانات الخزر الأوائل[2].

ومهما كان معنى اسم بولان[3]، فهو لاشك اسم تركي، ويمكن تفسير سوء الفهم حول الخاقانية بالانطباع الذي كونه كاتب الوثيقة حول وضع خانات الخزر المتأخرين، ولربما التبس عليه الأمر فمزج بين لقب خاقان والكلمة العبرية حاخام التي تعني «حكيم»، وفي الوقت الذي لا يمكن فيه اتهام وثيقة كمبردج بأنها غير أصيلة بسبب روايتها المشوشة حول التحول، يشعر المرء أن عليه أن يقيم التقدير للمواد الأخرى الواردة فيها بمزيد من الحذر، وعلى سبيل المثال: تعامله مع أخبار حروب الخزر في القرنين التاسع، والعاشر، التي هي المصدر الوحيد حولها.

وحاول بوليام اعتماداً على ما جاء في المصادر العربية الدفاع عما قالته وثيقة كمبردج حول التغييرات السياسية التي رافقت التحول، ويمكن الحكم على هذه المحاولة بالإخفاق

---

(1) ورد ذكر وجود قضاة يهود في بلاد الخزر عند الاصطخري والمسعودي.

(2) أعطى المؤرخ الجورجي، «بولخان» كاسم للقائد الخزري الذي تولى هجوم سنة 112هـ/ 730م (انظر بولياك ـ خزاريا: 141. بري ـ الامبراطورية الرومانية المبكرة: 406 ـ الحاشية 1. نقلاً عن وستبيرغ z.m.n.p.: 1908) وليس «بولخان» اسماً مصحفاً عن بارجيك، الذي قيل إنه كان قائد الخزر في هذه المناسبة (انظر الفصل الرابع). وإذا صح اسم «بولخان» و«بولان» يبدو بالإمكان الإقرار أن الخاقان قد رافق الحملة، ولم يكون بولان ببساطة هو البك.

(3) تبعاً لبرونزكوس (الموسوعة اليهودية ـ مادة الخزر) معنى كلمة بولان «حكيم» لكن هذا ما أنكره زاجاتشكوسكي (ثقافة 3)، وليست تعقيبات بولياك مساعدة (تحول: 4. خزاريا: 141) ولعل «بولان» صيغة عربية لاسم تركي مثل «بلبان» الذي يعني «صقر» أو «دب» أو قبلان «فهد». انظر الأسماء الخزرية المشتقة من بولخان، بولجان، بولشان (الحاشية السالفة والفصل السابع) وأيضاً ربما اسم تون ـ بو خانون القائد التركي الغربي في بوسبوروس في سنة 576 (مناندر 404).

الكامل، ذلك أن مسعاه لم يوضح الوضع التاريخي[1]، ولم يقدم أية أرضية للاعتقاد أن وثيقة كمبردج وثيقة معتمدة.

وبناء عليه إذا كانت وثيقة كمبردج تحتوي على معلومات لا يمكن ضبطها بوساطة أية مصادر، أو معارضتها بشكل إيجابي، لما نقرؤه في الأماكن الأخرى، هل يمكن الاعتماد عليها في مثل هذه الأحوال؟ ومن الواضح أن دونبوف[2]، ولاندو[3]، قد تأثرا بالحقائق التاريخية التي تقدمها الوثيقة حول علاقات الخزر بالشعوب الأخرى قبل المراسلات بأمد وجيز، لكن إلى أي مدى يمكن قبول ما قالته؟.

إن جزءاً كبيراً من الأخبار فيها لا يمكن ضبطه والتأكد منه بأية طريقة من الطرق، فهي على سبيل المثال: تتحدث عن حرب ضد البيزنطيين تحت قيادة بنيامين جد يوسف، وثانية تحت قيادة هرون والد يوسف، وقد قيل إن الامبراطور البيزنطي قد حرض اللان ضد الخزر، وفي ظل يوسف نفسه جرى الحديث عن الروس وهم يحاربون تاماتارخا Tamatarkha[4] بتحريض من الامبراطور رومانوس، وعن قيام الخزر بمهاجمة الأراضي البيزنطية انتقاماً، حيث احتلوا عدداً من البلدان، وهاجموا مركز شيرسون Cherson الهام[5].

ولا يتوافق هذا بعض التوافق مع الرواية عن بلاد الخزر المستقاة من السفير البيزنطي والمثبتة في رسالة حسداي، ويمتدح دوبنوف إيجابيات الرسالة التي كما قال لا تتحدث عن عناصر خارقة لدى عرض أخبار التحول، لكن الأمر المرغوب به كثيراً هو تشخيص هذه الإيجابية مع المصادر الأخرى، وصحيح أن قسطنطين بورفيروغنتوس، الذي تصور حين كان يكتب فيما بين 947 ـ 950 أوضاعاً يمكن فيها استخدام اللان ضد

---

(1) على سبيل المثال عالج النصف الثاني من نص ياقوت عن الخزر (انظر الفصل السالف) كمصدر سالف للتحول، وهو في الحقيقة ابن فضلان الذي كتب ـ كما بينا من قبل ـ حوالي سنة 922.

(2) المصدر نفسه: 4/ 480 ـ 481.

(3) الوضع الحالي: 4.

(4) كوكوفتسوف ـ المصدر السالف: 118 ـ حاشية 4.

(5) انظر ما يلي.

الخزر[1]، بيد أن الذي يتوجب علينا معرفته هل جرى استخدامهم في ذلك الحين وفي مناسبة محددة، وبشكل عام نادراً ما نقرأ عن حرب قامت بين الخزر والبيزنطيين، فيما عدا ما جاء في وثيقة كمبردج.

وقد أثيرت اعتراضات مختلفة ضد الوثيقة من قبل كوكوفتسوف، وكانت فكرته الرئيسة متمحورة حول أن الوثيقة ليست مستقلة في أسلوبها، وتعتمد على سفر يوسيبون Josippon، ويقول إذا صح هذا فإن وثيقة كمبردج هي عمل مصنف وليست رسالة أصيلة[2]، هذا وإن مسألة عدم استقلالية الأسلوب هذه، التي ذكرها كوكوفتسوف لا يمكن قولها حتى يمكن إثباتها[3].

وبالنسبة لحقائق المحتوى التي قدرها كوكوفتسوف فقد رأى أنها تأثرت بسفر يوسيبون، علماً أنه لا يمكن البرهنة على صحة ما ادعاه بالنسبة للنقطتين اللتين أثارهما:

1 ـ كان كاتب وثيقة كمبردج يعرف بالطبع اسم «خزارياً» الأخير (كتب دائماً قزارياً)، لكنه اهتم بإخبار مراسله أن الاسم القديم كان أرقانوس Arqanus، ومن المرجح أن هذه الكلمة صادرة عن الكلمة البيزنطية الإغريقية أركانون Arkanous، لكن من أين حصل كاتب الوثيقة عليها، فمسألة موضع تساؤل، إنما ليس من البديهي أن يكون سفر يوسيبون هو المصدر، فقد حدد ابن العبري أثناء حديثه عن وقائع سنة 1036 هركانيا Hyrcania على «أنها بلاد الخزر»[4]، وإذا كان هذا ليس برهاناً على صحة ما ذكرته الوثيقة، إنه على الأقل يطرح احتمالات أكبر من أن كاتب الوثيقة استعار بكل بساطة معلوماته من سفر يوسيبون.

2 ـ وبالنسبة للنقطة الثانية، فقد رأى كوكوفتسوف أن محتويات الوثيقة قد اعتمدت على يوسيبون في قولها: «اسم المدينة الملكية هو قزر (خزر) وأن هذا قد استعير من نص مفقود من هذا الكتاب، علماً أنه من غير المشكوك فيه ـ كما سلف ورأينا ـ إن الإشارة هنا

---

(1) انظر النص المقتبس فيما يلي.

(2) انظر ما سلف، المدخل.

(3) لاندو «الوضع الحال»: 4.

(4) المؤرخ السرياني ـ ترجمة وتحقيق بدج: 1/ 135.

إلى خزران، وهي التي شكلت النصف الغربي من العاصمة الخزرية حيث عاش الملك[1]، وبناء عليه تقدم وثيقة كمبردج هنا معلومات صحيحة وأصيلة.

وناقش كوكوفتسوف مسألة القول إن وثيقة كمبردج كانت هي الرسالة الثانية التي رآها يهودا البرشلوني، كما سلفت الإشارة إلى ذلك، ويرى أن هذا لا يمكن البرهنة على صحته، هذا وإن الحجج التي اعتمدها ليست من النوع الذي لا يمكن التعرض إليه، وقد أشار طبعاً إلى ما قيل حول الخاقانية في الوثيقة ووسمه بالخيال[2].

ومن الممكن أن نلاحظ أن استخدام Waw المقلوبة مع الماضي الناقص، موجود في وثيقة كمبردج وأكثر تكرراً من رسالة حسداي، وفي هذا المقام تقف الوثيقة في القطب المعاكس، والتعبير عن النص الطويل للرد حسبما يلي:

	Waw مقلوبة مع الناقص	Waw بسيطة مع التام
رسالة حسداي	48	14
(النص الطويل) الرد	1	95
وثيقة كمبردج	57	8

ومن الواضح أن هذه النتيجة تؤكد أن وثيقة كمبردج ورد يوسف هما من مصدرين مختلفين.

ودعونا نرى فيما إذا كانت الوثيقة تحتوي على مواد تاريخية أخرى مقبولة، فهي قد أشارت مراراً إلى اللان، كما يترافق الحديث عن ممر وحصن داري ـ ي ـ آلان (داريل) المشهور في بلاد القوقاز دائماً مع أخبار حروب الخزر المبكرة ضد العرب، ومع أننا لا يمكننا استخلاص ما يفيد من المصادر العربية أن اللان كانوا مستقلين يحكمون من قبل ملوكهم الخاصين بهم[3]، أو أن بعضهم كانوا يهوداً، إن هذه الإشارات في الوثيقة يمكن الوثوق بها

---

(1) انظر الفصل الخامس ـ الحاشية 10.

(2) انظر ما سلف.

(3) ينطبق هذا ربما في روايات حملة مروان في سنة 119/ 737. دمرت عاصمة اللان «ماغاس» (هي غير الحصن الموجود في ممر داريل المذكور في الفصل) سنة 1239 من قبل المغول (انظر مينورسكي قوقاز 3 ـ دورية معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية ـ 1952: 14/ 2.

واعتمادها، وإذا كان لنا أن نحكم بما قيل هنا في الوثيقة، وفي رد يوسف فإن استقلاليتهما كانت واردة، ولعلها كانت مسألة فيها نظر[1]، وبالنسبة للوضع في القرن العاشر فقد تابعنا الذي سلفت الإشارة إليه والمأخوذ من كتاب «الإدارة الامبراطورية» تأليف قسطنطين بورفي روجنتوس[2]، حيث قال:

«10 ـ وفيما يتعلق بمملكة الخزر، وكيفية إدارة الحرب ضدهم، ومن قبل من؟ فإن الغُزّ قادرون على إثارة الحرب ضد الخزر، لأنهم على مقربة منهم، وينطبق الحال على حكام بلاد اللان لأن أقاليم بلاد الخزر التسعة قريبة من اللان، وبإمكان اللان إذا ما رغبوا الإغارة عليهم، وتسبيب ضرر كبير، وأذى عظيم للخزر من تلك الجهة، لأن جميع أسباب الحياة وثروة بلاد الخزر مكونة من هذه الأقاليم التسعة».

«أما فيما يتعلق بحصن كيرسون Cherson وحصن بوسبورس Bosporus، بما أن حكام اللان ليسوا على سلام مع الخزر[3]، لكنهم يفضلون صداقة الامبراطور البيزنطي، فإنه إذا لم يحافظ الخزر على صداقته والسلم معه، يمكنه أن يلحق بهم الأذى عن طريق إغلاق الطرق، ومهاجمتهم بشكل غير متوقع عندما يكونون في طريقهم إلى ساركيل Sarkil، وإلى كليماتس Climates، وكيرسون، فلو كلف الحكام السالف ذكرهم أنفسهم بالعمل على تعويقهم، فإن الكيرسون، والكليماتس سيتمتعون بسلام كبير، لأنه إذا خشي الخزر من هجوم اللان وكانوا لا يتمكنون من حرب الكيرسون والكليماتس بجيش، لأنهم لا يمكنهم قتال الطرفين في وقت واحد، فإنهم سيرغمون على الاحتفاظ بالسلم».

وفي ضوء ما جاء في هذا النص من الممكن الاعتماد عليه بشكل كامل عندما تذكر وثيقة كمبردج أنه في مناسبة من المناسبات أيام حكم الامبراطور السالف، حرك هذا الامبراطور اللان ضد الخزر، لكننا لا نقرأ في أي مصدر آخر أنه بالتأكيد قد فعل ذلك.

---

(1) الرد (النص الطويل) حيث يدعي أن جميع اللان كانوا خاضعين.

(2) ط. بون: 3/ 80.

(3) وستبيرغ Dief ragmente des toparc Goticusousdem 10. Fahrhundert, M. R. A. 1902.

في حدود ما أعرفه إن وادي أو سهل تيزول Tizul حيث ـ تبعاً للوثيقة ـ كان هنالك كهف فيه كتب شريعة اليهود، لم يجر تحديده بعد، ويمكن الاقتراح أن هذا الاسم هو الاسم البيزنطي «تزور Tzour الذي هو بالعربية صول، الذي يطلق على ممر دربند، ويبدو أن بعض ما يؤكد هذا موجود في الأشكال الأخرى لقصة التحول، ذلك أنه تبعاً لكتاب كوسري فإن مسرح التحول كان جزئياً في كهف حيث طبق يهودي شريعة السبت في جبال ورصان، ولابد أن هذا في الجوار نفسه عند النهاية الشرقية للقوقاز.

وكما سلف القول، ليس لدينا معلومات مباشرة في أي مصدر آخر حول حروب الخزر مع البيزنطيين في القرن العاشر، ويبدو أن قطع «توبآرش القوطية» وهي وثيقة كتبت بالإغريقية في القرن العاشر كما هو مرجح، تشير إلى الخزر ـ دون أن تسميهم ـ بمثابة الأعداء الموجودين إلى الشمال من القرم، والذين يتحارب معهم قوط توبآرش.

وقد اقترح بروتزكوس Brutzkus أن هناك صلات وثيقة بين هذه القطع، ووثيقة كمبردج، وأبيات التمجيد في مطلع رسالة حسداي[1]، وهذا ممكن جداً، فكما سلفت الإشارة: من المنطقي أن نفترض أن شعر مناحيم بن ساروق يشيد بنصر محدد للخزر في الحرب، يفترض أن أخباره قد وصلت إلى الأندلس في وثيقة كمبردج، وإذا كان واضحاً ليوسف الخزري من الشعر وألفاظ التفخيم الواردة في مطلع الرسالة، أن حسداي صاحبها كان على معرفة تامة بنجاحاته العسكرية، فمن الممكن كما يقول كوكوفتسوف[2] أنه وجد من غير الضروري إعادة ذكر الانتصارات القريبة العهد في رده.

ويمكننا أن نمضي أبعد من هذا، فتبعاً لوثيقة كمبردج حدث بعد هجوم الروس على شعب تاماتارخا Tamatarkah بتحريض من رومانوس، أن هاجم بيساه Pesah (باسيه Paseah؟) الخزري الأراضي البيزنطية، ويبدو أن هذا الاسم يحوي في طياته بك مملكة الخزر (إما به Peh أو حتى بيساه أوبي ـ ساد أوبي ـ شاد أو إبي ـ شاد)، والكلمات العبرية: «بولش ـ تسي هو ـ بيساح ـ هميغر Bu(o)Lsh-tsi hu pesah hmygr» هي كلمات صعبة.

---

(1) Pismo khazars kogo evreia, Berlin 1924 (اقتباس لاندو ـ الوضع الحالي: 4).

(2) انظر ما سلف ـ المدخل.

وواضح على الأقل أن الكلمة الأخيرة (ترجمها تششتر بشكل مشكوك به إلى الموقر) هي فعل قد كتب على شكل نائب فاعل، وينبغي قراءتها ها ـ ميوقار Ha-mayuqqar، وبدون شك علينا أن نفسر Bulsh-tsi، البك الموقر، ذلك أن ممارسة البك لوظيفة القائد الأعلى واضحة تماماً في المحتويات، حيث أننا نقرأ في كلمات الوثيقة قولها: «استولى على ثلاث مدن إلى جانب عدد كبير من الرساتيق، وزحف من هناك ضد شورسونو (Shorsu(nu وقاتل ضدها» ومن الواضح أن الـ «شورسونو» هم الـ «الكيرسون»[1]، ومضت الوثيقة وكأنها تقول إن كيرسون قد استولي عليها من قبل الخزر، ويمكننا أن نفترض، أنها هي المدينة المشار إليها في مطلع رسالة حسداي.

وهنالك خط آخر مساير يمكن أن يظهر أن وثيقة كمبردج تحتوي على مواد تاريخية، وسلف لنا أن أشرنا إلى أن هذه الوثيقة تقدم رواية مختلفة حول التحول والأحداث التي قادت إليه، أعني مختلفة عما جاء في رد يوسف الذي يتوافق بشكل عام مع ما جاء في رواية كتاب كوسري.

ويبدو أيضاً أن وثيقة كمبردج لا تقف وحدها كما أوحي من قبل، فرسالة حسداي تحتوي على مواد كانت شائعة في الأندلس من الواضح أنها اقتبست بغرض معرفة فيما إذا كان ملك الخزر يعرف شيئاً عنها، فقد سأل حسداي مراسله أن يخبره حول جذور المسائل... كيف وصل بنو إسرائيل إلى ذلك المكان [أي بلاد الخزر]، فقد أخبرنا آباؤنا أنه في أول استقرارهم[2] عرف المكان باسم جبل سير Seir، لكن مولاي يعرف أن جبل سير بعيد جداً عن المكان الذي يعيش فيه، ويقول شيوخنا: إنه عرف في الماضي باسم جبل سير، لكن التنكيل قد ساد وانتشر، وأنهم انتقلوا من سخط إلى سخط، حتى استولوا على الأرض التي يقطنون بها.

كما أن الشيوخ من الجيل الماضي الذي يمكن أن يعتمد عليهم قد أخبرونا كيف صدرت الأوامر بالتنكيل بهم بسبب إيمانهم، وكيف قام ضدهم جيش كلداني بحنق

---

(1) كوكوفتسوف: 119 ـ الحاشية 9.

(2) في طبعة من المراسلات الخزرية ـ تحقيق أ. سبروني ـ تل أبيب «استقراركم».

وغضب، ولهذا أخفوا كتب الشريعة والكتابات المقدسة في كهف، ولهذا السبب صلوا في الكهف، ومن أجل هذه الكتب علموا أولادهم أن يصلوا في الكهف صباحاً ومساء، حتى جاء وقت بعد زمن مديد نسوا ما جرى وما عادوا يعرفون شيئاً عما في الكهف، ولماذا اعتادوا على الصلاة هنالك، لكنهم مارسوا عادات آبائهم دون أن يعرفوا لماذا.

وبعد وقت مديد قام رجل من بني إسرائيل كان تواقاً لمعرفة السبب، فدخل إلى الكهف فوجده مملوءاً بالكتب فأخرجها من هناك، وأوقفوا أنفسهم منذ ذلك اليوم على تعلم الشريعة، هذا ما أخبرنا به آباؤنا حيث سمعه جيل مضى من جيل تقدم عليه، فالقضية كلها قديمة، ويبدو أن الكلمة الأخيرة تحول دون إمكانية فكرة أن «حسداي» كان بكل بساطة يعيد على مسامع «يوسف» بعض محتويات الوثيقة.

وبناء عليه يمكننا أن نرى رسالة حسداي ـ التي ادعت أنها تقدم بعض الأخبار المتداولة بين اليهود في الأندلس ـ بعض آثار رواية التحول المقدمة في وثيقة كمبردج، وهي تابعة من بعض الجوانب، مما يمكن دعوته الأصل الأولي لرواية الرد، حيث نجد على سبيل المثال أن الـ «رجل من بني إسرائيل» الذي دخل إلى الكهف يحمل شبهاً شديداً (ببولان ـ سبريل)، كما ظهر داخل الوثيقة، لكن إذا كانت الوثيقة تحتوي على أخبار متداولة موجودة، ففي هذا دليل على الأصالة، ويبدو أن ما يمكن دعوته باسم الأخبار الأندلسية المتداولة قد ترك بعض البصمات على كتاب كوسري، لاسيما قضية زيارة الكهف.

وتذكر الوثيقة بعض السمات التاريخية، فقد ذكرت كل من أولغ Oleg الزعيم الروسي، ورومانوس ليكابنيوس، لكن جرى عرضهما على شكل من يثير المشاكل لا من يقوم بحلها، وبالنسبة لمسألة رومانوس هناك بعض التأكيدات لما وسم به، ذلك أن تنكيله باليهود قد ذكره المسعودي، ونجد مثلاً يوائم فيما بين الوثيقة ومصادر أخرى في الفقرة التالية: «إنهم يقولون في بلادنا، إن آباءنا كانوا من سبط شمعون، لكننا لا ندري حقيقة الحال» ولا شك أن هذا فيه صدى لما قيل في رواية إلداد ها ـ داني Eldad ha-Dani حول سبط شمعون، ونصف سبط منشا من أنهما موجودان في بلاد الخزر[1].

(1) د. هـ. موللر. «نص إلدادها ـ داني» (D. K. A. W ـ 1892) اقتباس: 198 ـ الحاشية 3.

وتجد الوثيقة في رواية كارمولي Carmoly لنص إلداد نظائر أقرب، لأن المرء يقرأ هناك: «إن سبط شمعون موجود في أرض الخزر على جوانب نهر أتل، واسم ملكهم حزقيال (كذا) وعددهم كبير لا يحصى وهم يأخذون الجزية من خمس وعشرين مملكة، ويدفع كثير من العرب الجزية لهم.

ويتحدث أبناء شمعون، العبرية، والخزرية، والعربية، وهم متعلقون بالشريعة المدونة والمروية شفوياً مع تقاليد قائمة، وتخريجات منطقية[1]» وقد وسمت هذه الرواية من كتاب إلداد، بالزيف من قبل زونز[2] Zunz ونيبور[3]، وليس هنالك من سبب لرفض ما توصلا إليه، ذلك أن اسم حزقيال لم يرد بين أسماء خانات الخزر في الرد، والاحتمال الأكبر هو أنه اسم مجهول[4].

ونقرأ في كتاب آخر نشره كارمولي وعدّه مزيفاً وعنوانه أقتان دي مار يعقوب Aqtan d' mar Jacob: «عندما تبنى الخزر اليهودية التحق بهم سبط شمعون»[5]، وفي ضوء الشكوك في إلداد، والسمات المثيرة للشكوك في عملية نشر كارمولي، فإن هذه الاقتباسات لا تمتن قضية الأصالة، مع أنه يبدو من المفيد جمعها معاً.

وبشكل عام تبدو الوثيقة، وهي تحوي بعض الحقائق التاريخية مثل: وجود يهود من الشرق في بلاد الخزر منذ تاريخ مبكر، وتحديد شخصية سبريل أنه بولان مؤسس اليهودية الخزرية، حروب الخزر الأخيرة (لاسيما حملة البك ضد البيزنطيين)، ولاشك أن هذه الأمور ينبغي عدّها إضافات لمعلوماتنا عن الخزر.

وتعطي الوثيقة من جهة ثانية بعض المعلومات المشكوك بها، ومعلومات لاشك أنها زائفة مثل الرواية عن الخاقانية، ولعل مرد الكثير من الصعوبات هو إلى وضع النص،

---

(1) الدادها ـ داني ـ باريس 1838.

(2) Gesammeltesehriften ـ برلين 1875: 1/ 157 ـ 158.

(3) المجلة الربعية اليهودية: 1/ 114.

(4) ورد ذكر خاقان خزري اسمه زكريا في حياة قسطنطين القصيرة، انظر ما يلي ـ الفصل السابع، وقدم ستينغاس في «معجم فارسي» اسم ملك خزري دعي «الياس» دون المزيد من المعلومات.

(5) اقتبس في الموسوعة اليهودية ـ مادة سيمون.

مفترضين أن تحديد ششتر لتاريخ الوثيقة هو صحيح[1] (القرن الثاني عشر) حيث كان هنالك وقت أكثر مما يكفي لاهترائها، ويمكن أن يكون في هذا إيضاح لماذا توجب على وثيقة كمبردج إعطاء الانطباع المعاكس بعدما تعرضت للانتقادات الهادفة والتاريخية.

وقبل أن نختم هذا المبحث المتعلق بالمصادر العبرية، التي لديها بعض المعلومات حول تحول الخزر إلى اليهودية، من الضروري أن نتحدث بعض الشيء عن قطعتين من محتويات الجنيزا، نشرتا من قبل مان[2] Mann الأولى: رسالة ناقصة أرسلت ـ كما يظن المحقق ـ من قبل حسداي إلى امرأة هي الامبراطورية هيلينا زوجة قسطنطين بورفي روجنتوس، وظهرت الإشارة إلى حسداي بإبداء الكاتب لأمانيه الطيبة نحو نصارى قرطبة، فمن المعروف أنه بعدما تخلص قسطنطين من ليكابينوس Lecapenus في سنة 944م كانت زوجته نشطة جداً في الحكومة.

وبما أن الرسالة تقتبس لإبداء التسامح تجاه اليهود في القسطنطينية، فمن المعقول أن نرى في هذا إشارة إلى أن تعرض اليهود للتنكيل في ظل حكم رومانوس كان حقيقياً، والقطعة الثانية تبعاً لمان هي: صدر رسالة مرسلة إلى قسطنطين، ومع أن اسمه غير مذكور فيها، لكن المديح الوارد هناك خليق بذلك الملك المثقف، ويشير الكاتب إلى وصول رسالة من قبل بعث بها مرسلها إلى الخليفة عبد الرحمن في الأندلس، ومن المفترض أن هذه الرسالة كتبت أيضاً من قبل حسداي، واقترح لاندو أن القطعتين هما جزء من وثيقة واحدة تولى صياغتها مناحيم بن ساروق، كما تولى صياغة رسالة حسداي، وقد دفع هذا الاقتراح بولياك بشدة إلى إصدار حكم عرفي، افترض فيه أن الخليفة عبد الرحمن هو عبد الرحمن الأول[3].

ومن الصعوبة بمكان استخدام التجربة التي استخدمناها من قبل (مقارنة تردد الـ Waw المعكوسة والـ Waw البسيطة مع الماضي التام) هنا بسبب طبيعة التمزق بالنسبة لوثيقتي الجنيزا هاتين، فهما لا تعودان من حيث الأصل ـ كما يبدو ـ إلى مخطوطة واحدة

---

(1) انظر المصدر نفسه: 184.

(2) نصوص ودراسات: 1/ 21.

(3) في عرضه لمادة «خزاريا» المصدر نفسه.

كما الحال بالنسبة لوثيقة كمبردج[1]، ومع ذلك من الممكن أنه وجد في وقت من الأوقات نوع من أنواع المجموعات التي حوت مراسلات حسداي وذلك داخل الجنيزا، ولاشك أن وجود هاتين القطعتين يمتن انطباعاتنا أن وثيقة كمبردج ليست مزيفة.

ويمكننا أن نضع من حيث المبدأ أجزاء الصورة التي ظهرت بين أيدينا كالتالي: من المحتمل أنه في وقت ما قبل سنة 112هـ/ 730م أصبح قادة الخزر تحت التأثير اليهودي، ويمكن رفض الإشارة إلى الوقت الوارد في رد يوسف (قبل 961)، ومن الممكن أن نقرأ عبارة «340 سنة سلفت» الواردة في الرد. «240 سنة سلفت» فهذا يمكن أن يعطينا تاريخاً قبل سنة 721م للقبول الأول لليهودية من قبل الخزر.

ففي سنة 112هـ/ 730 حدث هجوم خزري ناجح ضد أردبيل نجم عنه هزيمة، وموت الجراح بن عبد الله، وهو القائد العربي الذي تصدى لهم، وتبدل الوضع سنة 119هـ/ 737م عندما فرض مروان الإسلام على الخاقان المهزوم، وانسحبت الجيوش العربية بعد هذا بوقت قصير واعتنق الخاقان اليهودية معدلة، وذلك بعد مناظرة دينية، وكان هذا حوالي 740م، وهو التاريخ الذي أعطاه هاليفي في كتاب كوسري، وبعد مضي جيلين أي حوالي سنة 800م[2] اعتنق واحد من سلالة الخاقان اليهودية الحاخامية، أما بالنسبة للدور الذي شغلته بيزنطة في هذه التحولات فنادراً ما أشير إليه، وسنتفحصه في الفصل التالي.

---

(1) في وثيقة كمبردج / 23/ سطراً في صفحة، وفي قطعة مان 25 ـ 26 سطراً لكل صفحة.

(2) ينبغي التذكر أن هذا تقريباً هو تاريخ التحول الذي أوحت به المصادر العربية (الفصل الخامس).